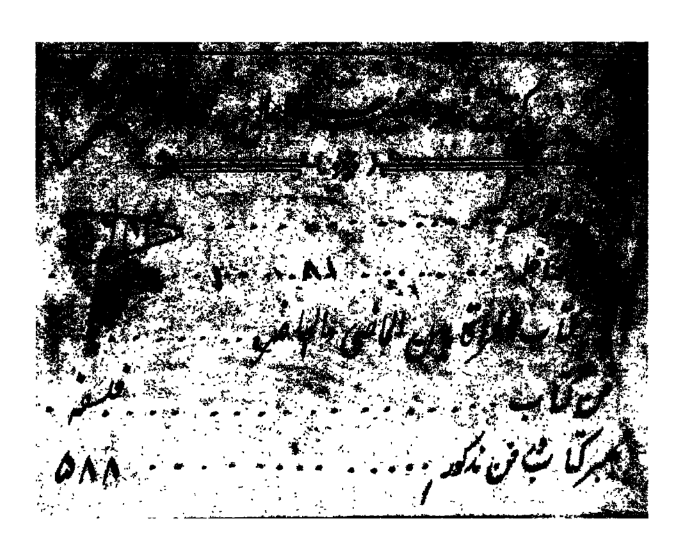




بقلم

الاستاذ محمود خيرت

بسكرتارية مجلس الشيوخ



عنيت بطبعه ونشره

ادارة مجلة الاخاء بمصر

سنة ١٩٢٨

مطبعة الشرق شارع كلوت بك لصاحبها [illegible]



ان الي تهز السرير بيمينها تهز العالم بشمالها (روسو)

ان اليوم الذي لا نرتكز عنده على مكارم الأخلاق نحفر فيه بيننا وبين الدين هوة عميقة لان الرجل الذي يحترم دينه لا يدوس بقدمه على الفضيلة أما اذا كان كاذبا قاسيا فلا أدري كيف يطمع في رحمة الله

(غاندي)

يقولون لنا انكم لا تستطيعون أن تصلوا الى الكمال التام . نعم . ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نعمل لنصل الى الكمال الممكن

(سعد زغلول)

العفاف كالمعدة اذا لم يجد ما اعتاده من طعام الزوجية الطاهر فقد ينصرف الى غيره من خبيث الطعام (المؤلف)

الى الاسرة المصرية الكريمة

لقد أصبحنا نرى كل يوم حجراً جديداً يسقط من ذلك البنيان القديم الذي كان يحول بين السيدة المصرية وبين أمنيتها من الحرية والرقي

وقد كانت تلك الاحجار في سقوطها تنزلق انزلاقا هادئا ناعما لم يزعج أسماعنا ولكنه أزعج نفوسنا وخواطرنا وقد يبلغ الصوت أحيانا قلب الانسان قبل أن يصل الى سمعه

أزعجنا لأننا رأينا مكان هذا البناء الذي قام على سلطان الأوهام والخرافات بناء آخر ينذر بخطر وبيل

وعندئذ طرقت اذاننا صرخة شديدة هزت أوتار نفوسنا هزاً وما كانت غير صرخة الفضيلة تخرج من بجوات هذا البناء الجديد

نعم أن الأمر لم يعد بخاف على أحد منا فلا معنى لأن نكذب نفوسنا أو نخدع أبصارنا وفي كل يوم نرى أثر الافلاس الخلقي يظهر كالقرحة الدامية في وجه هدوئنا وسكينتنا ويمرح بيننا في ثوب كان لا يضم غير الطهارة والصون فاذا به لا يتسع لغير الرذيلة

لقد كان حلماً شهياً ذلك الحلم الذي وقفت آمالنا منه عند السيدة المصرية نراها تاجا وهاجا يزين مفرق حياتنا واكليلا من أغصان الازاهير النضرة نشم فيه عبق الفضل وعطر الأخلاق ولكنه لم يكن الا كغيره من الأحلام استيقظنا بعده عند ذلك التاج فاذا هو قيد وعند نور تلك الحرية فاذا بها ظلمة حالكة

ان الدار الشرقية كادت تقفر من أسباب زينتها وحياتها وقد عرفت الرذيلة كيف تهتدي الى طريق بابها . وما كانت تلك الدار الا الوطن الصغير ولا تلك الاوطان الصغيرة الا اجزاء وطننا الذي تتهالك في سبيل اكرامه واستقلاله فاذا لم يكن بينها وبين بعضها صلة قوية من طهارة الاخلاق انفرط عقدها وتداعى هذا البناء الشامخ

ان الفتاة المصرية زينة بيتها حتى لقد بلغ من فخر القروي بابنته ان اطلق عليها اسم « ست الدار » وربما كان لهذه التسمية نصيب كبير من الواقع فنحن نعلم أن الفلاحة هي عماد البيت تقوم بكل الشؤون الخاصة به بل أنها تتخطاها فتشارك زوجها في نفس عمله به أو بالحقل وكثيراً مارأينا القرويات عاملات مع أزواجهن في ضرب الطوب وتشييد البيوت وفي ادارة الطمبور ماهرات في عمل القاطف وصنع السلال وأواني الآجر . على ان الطبيعة الحكيمة قضت بأن يكون لكل من الرجل والمرأة عمل خاص واختصاص محدد حتى يسهل عليهما حمل العبء الثقيل الذي وضعته على اكتافهما تكاليف الحياة

وليس البيت في الحقيقة غير مملكة صغيرة للزوجة تعمل في دائرته على ما يكفل حسن النظام والراحة والسلام ويعمل زوجها بعيدا عنه ليدفع عنه وعن زوجته شر الفاقة وهكذا يعيشان عيشة ناعمة هادئة في ظل الهناء والسعادة

انني كثيراً ما أرى المتحضرين حين يذكرون الفلاح يتألمون له ويتوجعون لحاله لأنه يسكن أحقر البيوت ويتناول دنيء الغذاء غير كد

النهار تحت حرارة الشمس المحرقة . ولو أنهم علموا انه اهنأ منهم حالا وأنعم بالا لحسدوه

ان الفلاح ربيب الطبيعة يعيش في احضانها بين هوائها الطلق وتحت شمسها المنعشة لا يأكل غير بسيط الطعام فلا يؤذي معدته ويدأب على العمل فلا يضعف جسمه ويندر ان يتطرق اليه المرض ورئتاه تستنشقان نقي الهواء والشمس من فوقه ترسل اليه أشعتها الدافئة فكأنه تحت رشاشة يتدفق من مسالكها النور وفوق هذا بعده عن متاعب المدنية وهمومها

أما المصرية سواء في الثغور أو العاصمة أو المدن فانها تكاد الآن تكون صورة أخرى غير هذه الصورة . انصرفت عن البيت الى خارجه فأصبح مقامها فيه استثناء وبعدها عنه بالنهار أو الليل قاعدة وتفضت عن كاهلها عبء المسؤلية في دارها فلم تعد زوجة الا لتكون زينة ومتاعا . وما بمثل هذا تصلح العائلة لتكون مدرسة الوقت ومستودع الرجال في المستقبل

سأل مرة أحد سفراء الفرس زوجة ليونيداس عن سبب اكرام الأغريق نساءهم فقالت لاننا عرفنا كيف نخلق الرجال . وفي الواقع ليس الغرض أن تكون الأم ولودا ولكن الغرض أن تلد رجالا عاملين لأنه لا يكفي ان ينزع الوالد للبر بل يجب على أمه أيضا ان تتعهده بالتربية الصحيحة حتى يكون فيما بعد لاهله ولوطنه ذخرا وهكذا كان يقول نابليون « ان مستقبل الأبناء من عمل امهاتهم »

ولكن الذنب في ذلك كله على المصرية أولا وقد دب فيها الضعف وفتّ في عزمها الانحلال حين اخذ بلبها بريق المدنية واغراها جزره بخرفها

مده فلم تعد تلك الفتاة الصبوحة الحية شمس الاسرة وأنس الزوج وزينة الاهل ونخر الأيام « وست الدار »

على أن أبويها وزوجها مسئولون أيضا معها فيما آلت اليه من سوء الحال مسئولية ربما كان سببها الجهل او عدم اليقظة أو التفريط او الفساد ولا سيما بالنسبة للزوج وهو اولى الناس بأن لا يفتح عيني زوجته الا على صورة زاهية من محامد الصفات واحترام الواجب

نعم ان تطور الامم عند انتقالها من حالة الى أخرى من حالات الاجتماع قد يجر الى مثل هذا الاضطراب ولكن ماذا يمنعنا من التنبيه اليه في هذا الوقت العصيب حتى اذا لم تتدارك خطره اوقفنا على الاقل سيره

هذا الذي دعاني الى تقديم هذه العجالة الصغيرة الى الاسرة المصرية الكريمة لتأخذ بيد أختها التي دفعها سوء الحظ ونزق الشباب الى طريق سيئات المدنية الحديثة لتحذرها وتفر منها وما كان مدادي علم الله وأنا اكتبها الا حسن القصد والخدمة العامة فان كنت أصبت فحسبي اني قمت بواجب عليّ نحو الامة التي انا فرد منها وان كنت أخطأت فمن ذا الذي لم يقع في الخطأ والله يتولانا جميعا بالهداية

محمود خيرت

شجاعة الرأي

العادات وتباينها — فضل الشرق قديما — تأثير المدنية الحديثة على عاداته — قاسم أمين

للشرق عادات وتقاليد لا تناسق مع عادات الغرب وتقاليده فلكل منهما طابع خاص وعقل مستقل بسبب ما بينهما من التفاوت في المذاهب واللغة وأسلوب العيش والمناخ

وكل أمة لا تنظر الى عاداتها الا بعين الرضى ولذلك لا تكون دائماً معصومة عن النقائص ويظهر ذلك اذا رجعنا بها الى حالة بساطتها الأولى وجردناها من تعقد المدنيات المتعاقبة وجعلنا مقياسنا فيها طهارة النفس ومكارم الأخلاق

ولا ينكر أحد ما للشرق قديما من الفضل بسبب ما كان عليه أهلوه من شرف الخصال وما كان لنظمهم من البساطة الوافية بالغرض . كانت أخلاقهم رضية تسدي المعروف لذويه وتكرم الضيفان وتحمي الجوار . يتسامحون في بيع نفوسهم رخيصة انتصافاً للمظلوم من الظالم وغسلا للعار ودفاعا عن الوطن . زاهدين في زخرف الحياة قانعين بالصبر وحسن الجزاء عند الله ما دام أن شعارهم : اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا

ولكن تلك الحياة السعيدة انهار بنيانها فزالت وأشرفت على الزوال وقد تبدلنا من حياتنا الأولى حياة أخرى لا تتفق مع عاداتنا ونظمنا ومناخنا حين بهرنا بريق المدنية وأخذ طلاؤها بألبابنا فجرفنا تيارها

ثم لتداسدلت على ابصارنا من قشور زخرفها غشاوة كثيفة اصبحت عيوننا عندها في عمى عن حقيقة الجمال واسماعنا في صمم من صوت الحقيقة وساعد على ذلك خلو نفوسنا من الخبث واستسلامها لمطلق الثقة وايضاً ما امتاز به اهل الغرب من المقدرة على تخدير العقول واستدراجها الى ما أرادوا واضمروا حتى زحزحونا عن السبيل السوي الذي كان عليه اسلافنا فنفضنا ايدينا من مدنيتهم التي عطر ارجها جو الأجيال الغابرة وقد كانوا هداة الامم واساتذة الشعوب

ومما يؤسف له ان مدنية الغرب تغلغلت في كل شيء منا فمحا تألقها البسام مابقي لنا من ذلك الميراث النبيل ومن حسنات مدنيةاسلافناالمزدهرة وهكذا صرنا الى حال يتقزز منها رفاتهم في قبورهم وقد افسدنا ما اصلحوا وهدمنا ما شيدوا وأضعنا ما ادخروا

ولقد ادرك ذلك عقلاء الأمة ومفكروها فاضطربوا وتيار تلك المدنية الحديثة الجارف يسوقها في منحدره سوقا ولكنهم ظلوا مع ذلك جامدين لا يجرون خلف وسائل صده او ايقافه مع ان التخلي عن محاربة الفساد جرم والسكوت على الاقل في مقام التنبيه الى خطره نكر حتى قام

المصلح الكبير المرحوم قاسم أمين [1] قومته التي لا ننساها فكان أول شرقي جريء في الحق جريء على الباطل وقف نفسه وقلمه على معالجة هذا التيار

ولقد قام بعض الناس وقتئذ في وجهه فكانوا كذلك الدب الجاهل وسلاحهم كما هو شأنهم دائما الدين والدين منهم بريء . اما هو فوقف في ميدان الاصلاح وقفة المصارع الشجاع وثبت على ما وهب له نفسه فكان في غرضه مصلحا نزيها وفي حملتهم عليه حليما حكيما

وربما كان مرض القرن الذي نعيش فيه هو فقدان الشجاعة الفكرية والتقاعس عن رفع لواء الرأي عالياً يرفرف فوق سماء الجمود وتمجيد القديم

على انه ما اراد فيما ذهب اليه الا أن يرجع بالمرأة المصرية الى دائرة الحرية التي خولتها اياها شريعتنا وأن يضرب بضربة قاضية تلك السلاسل التي وضعتها في عنقها الخرافات والاوهام

---

(١) أن موضوع المرأة وتحريرها من الموضوعات الهامة تناوله قبل قاسم أمين بفرنسا الاستاذ ليون ريشيه ووضع فيه بحثا مستفيضاً اكبره فيكتور هوجو فأرسل اليه بالكلمة الآتية :

سيدي المحترم

ما الزم شجاعة الرأي في موقف الحث على العدل نحو الضعيف . وما رأيت مخلوقاً بيننا أضعف من المرأة وقد سلبتها نواميسنا الأجتماعية كل ماوهبتها اياه الطبيعة من الحقوق حتى أصبح نظامنا غير متوازن

نعم ان في قوانيننا لفراغاً كبيراً يجب ان نملأه بالتشريع لمصلحة المرأة لأنه اقتصر على مايتعلق بحقوق الرجل وحده فأصبحت المرأة كالقاصر وكالعبد الرقيق. ومما لا يمكن انكاره الاساس الواهي الذي اتخذ قاعدة لتربيتها فساءت حالها وساءت حال زوجها معها حتى اصبح واجبا النظر في أمر اصلاحها وتحريرها لأنها دعامة المدنية والحق والنور ولهذا كان كتابك فجر الكتب فى هذا الموضوع الخطير

ولست أدري لماذا لا يتقدم صاحب الرأي الى الناس برأيه صريحاً صادقا ما دام يعتقد انه صواب بدلا من ان يخنق رأيه بيده ويحول بين اسلحة خواطره وبين ظهورها في ميدان الوزن والاعتبار

اما اذا كان سبب انكماشه خوفه من جرح عواطف الناس وحرصه على احترام مشاعرهم فأهم ايضا مطلوب اليهم ذلك نحوه ونحو سواه . على أن مجرد الأدلاء بالرأي لا خطر منه مادام أنه سيتناوله الأخذ والرد ويصهره التمحيص والبحث لأن الحقيقة لا يتطاير الصدأ من فوقها الا باصطدام الخواطر واحتكاك الافكار . ولذلك كان التأخر عن الجهر بها انما لأن حبسها باعتبارها حقا يشجع الناس على استمرارهم في اتباع الباطل فتدفن الحقائق

ولكن قاسم امين ابى سلطان ضميره الا هذه الشجاعة فسار في طريقه غير مبال ولا هياب تاركا الناس احرارا في ظنونهم يقولون ما يشتهون وينفثون من سموم احقادهم ما يشاءون . فانعماً بفضيلة الصراحة والبعد عن مزالق الرياء والنفاق والأفلات من حكم النفس وعذاب الضمير

على أنه لم يرَ رفع الحجاب الا مع التحفظ وشعر بقصر عمره مع ذلك التيار الذي كان شديد التدفق حتى أصبح من العسير امساكه أو منعه فأخذ بستسرع مواطنيه في تعهد المرأة بالتربية الصحيحة حتى تتهيأ لخوض اللجة التي تنتظرها

ومن حسن حظ مصر أن الأوهام أخذت تتطور تطورا جرّأ المفكرين على اعلان افكارهم مهما نالهم على اثر ذلك من التحقير لأنهم مجاهدون يحاربون في صف الحقيقة فاذا انتصروا ابتسمت الشمس في سماء الأفكار

الصحيحة واذا غلبوا على امرهم بسلاح الجمود والجهل والاستبداد سقطوا في ميدان الجهاد شجعان شهداء وكانوا من الخالدين

على ان لكل مجتهد اسوة بمن سبقوا من الرسل المكرمين والعلماء المفكرين وجبابرة المكتشفين والمخترعين فكم ذاقوا من صنوف العذاب والأذى بسبب ما كان منتشراً حولهم من اجواء الجهل وظلمات الأحقاد ولكن ذلك لم يفلّ من إقدامهم ولا اطفأ من شعلة قلوبهم وخواطرهم فاستمروا في طريقهم ينشرون انوار الهداية بين الضالين ويكشفون عن حقائق العلم واسرار الكون للجاهلين

فهل لو لم يكن هؤلاء البررة المجاهدون كنا نرتع فيما نحن نرتع فيه الآن من حسنات الهداية ونعماء العلم ؟

ولقد كان غاليليه الطلياني من أكبر علماء القرن السادس عشر في الطبيعة والرياضيات والفلك وكان الجهر بالأفكار الجديدة في القرون الوسطى يجر على ذويها اكبر الأخطار ومحاكم التفتيش منتشرة في كل مكان ولكنه مع ذلك لم يخش ان يعلن للناس رأيه من ان الأرض تدور حول نفسها كل يوم وحول الشمس كل سنة . ولقد طلبت اليه محكمة من تلك المحاكم وهي مشهرة سيف انتقامها فوق رأسه ان يخاف . . . . بأن رأيه فاسد ! ففعل ولكنه عزّ عليه اضطهاد الحقيقة الى هذا الحد فتمتم وهو خارج : « انها مع ذلك تدور »

عودة الى الحجاب

العوامل المؤثرة في الحجاب — الحجاب القديم والحديث — الحرب بين المحافظين والمجددين — هن لباس لكم — قطعة من الشعر — مافعلت الأزياء — احتضار الحجاب

ربما فهم القارىء أنني اريد ان اعود بالسيدات الى الحجاب[1] وانما اردت ان أعود الى الكلام عليه .

وما كان الحجاب لذاته ليستوقفني هنا لحظة اسوق الكلام فيها عنه وهو كالراية خرقة لولا المعنى الذي قصد منها لما كان لها من قيمة . فالحجاب كان رمزاً لحياء المرأة كما أن الراية لاتزال رمزاً لحياة الأمم فكم راية حين اعتدي عليها اثارت حربا عوانا وكم من يدامتدت الى حجاب سيدة اورثت صاحبها حسرة وندما حتى أن هوجو في مأساة او كريث بورجيا قال لمن حاول انتزاع حجابها : « حذارأن تمد يدك اليه فأنهمقدس كوجه الرجل»

على أن للحجاب ماضيا كاد يذهب مع الماضي وحاضراً هو مثار حرب شعواء الآن بين انصار القديم وعشاق الجديد

واذا صح أن أسمي هذه الحالة تبدلا جاز لي القول بأن عهد الحجاب بين وقتنا الحاضر والماضي كان في كل خطواته متأثرا بعاملين من تطور المدنية ومن السفور في الأصل وما كان ابونا آدم كاسيا ولا امنا حواء مقنعة حتى أن اهل القرى وافراد الطبقات الدنيا في الأمصار كل نسائهم سوافر

(١) غرضنا من الحجاب هنا النقاب

ولقد تحرزت بقولي-تبدّل الحجاب لأنه لايزال في الحقيقة قائماً. ولكنني قصدته من حيث شكله لأن الذي يرجع الى الحجاب الشرعي ينكر الحجاب الحاضر والذي ينظر الى الحجاب الحالي يحكم بأن المرأة اصبحت بغير حجاب

ان الحجاب في الازمان الأولى كان اشبه بخباء محكم الاطراف لايترك للناظر سبيلا الى وجه المرأة . اما مانراه الآن فما هو بحجاب بحقيقة معناه لأنه أصبح من بعض وسائل التحلي والزينة .

ومن اعجب الاشياء أن نساء العهد الغابر على بعدهن من ترف المدنية كن يسترن وجوههن بذلك الحجاب الكثيف وأن نساء العهد الحاضر مع مايضعنه على وجوههن من الاصباغ والمساحيق والأعطار لايسترن الا خلف حجاب أرق من النسيم

وربما كانت طبيعة المرأة من اغتباطها بذكر الناس محاسنها هي التي دفعتها الى استرداد حقها فعمدت الى التبرقع بمثل هذا الحجاب .

ولكنها بمثل هذا اصبحت فتنة الناس حتى قامت تلك الحرب التي أشرنا اليها بين المحافظين والمجددين

واذا نظرنا الى وجهة كل منهما وجدنا عند كل شفيعا لأن احترام حق المرأة من التمتع بنعيم الحرية واجب بحكم الطبيعة وحكم الشرائع حتى أصبحت المرأة الغربية تزاحم الرجل في كل شيء ولان التغالي في هذا الحق والمرأة المصرية لم تنضج بعد ربما جر على اخلاقها كثيرا من الاخطار

على ان المرأة في الواقع خير مكافأة للرجل الذي يقطع نهاره بالعمل فهو بعد سباحته كل يوم في لجج الحياة المرتطمة بحاجة الى ساحل يرتمي عنده ليتذوق شيئا من نعيم الراحة فالمرأة من هذه الناحية كأس صافية ينهل الزوج من

حبيبا افاويق الحب الخالص السليم فينسى عند شفتيها ما أصابه من ألم الكد ويجد عند صدرها اللين الدافيء حمى يلهيه عن هموم النهار

ولكن المرأة لاسباب شتى تعدت الحد اللائق بحريتها وعكست الغرض المقصود من هذه الحرية فاصبحت لا تتزين ولا تتطيب الاساعة خروجها كأنما الطرقات ومحال البيع والشراء والتزاور بحاجة الى معارض متحركة من معارض الحسن والزينة . أما لغير هذه الاسباب فأنها تقبع في عقر بيتها على حالتها الطبيعية المهملة حتى ليخيل الي أن الزوج المسكين يود لو أنها ترتدي أحد الحجابين القديم تستر به عنه أهمالها او الجديد تظهر له به في زينتها وهو احق من غيره بذلك

وربما كان ذلك اكبر حجة عند انصار الحجاب حتى انني مع احترامي لحرية السيدات انتقلت مرة الى صفهم بهذا الشعر

ما للفتاة تغيرت اخلاقها	فجنت على الأعقاب والاسلاف
وجنت على الماضي الكريم وسمعة	طاف الزمان بها بكل مطاف
حنت الى شمس الحياة ترف في	أكنافها تحت الأديم الصافي
وصبت الى يوم يفك اسارها	فيه وقد عدته يوم زفاف
فتهللت منا النفوس وقد غدت	ترتد حصتها من الانصاف
منذ الحين وليس في حسباننا	ان يستحيل الوعد للاخلاف
متوسمين الخير في حركاتها	عند الغد المتباعد الاطراف
والأم مدرسة النفوس اذا غذت	اولادها بمحامد الاوصاف
لكن لسوء الحظ طاش بسهمها	نزق الشباب وخلة الاسراف
ماذا أقول وكلما خرجت نرى	غصنا تثنى لين الأعطاف

قدأحكمت منه الازار فشف عن اعضائها ومرجرج الارداف
والوجه من اصباغه في برقع جاءت عليه ببرقع شفاف
واللحظ يرسل في الطريق تحية للناس خائنة لكل عفاف
والناس من لحم يحن ومن دم وعواطف عند الشباب حفاف
ماادركت معنى الحياة فأصبحت اولى من المجروح بالاسعاف
والزهر يقصد وهو فوق غصونه والدر يطلب وهو في الاصداف

على أن سيل المدنية وسلطان الطبيعة القوي أخذ كلاهما بخنق هذه العادة مع مالها من الاثر في النفوس حتى اصبح السيدات في الآونة الحاضرة بعد ماغيرن وجه النقاب يقابن الحجاب على كل وجوهه فمن خمار مصري الى آخر تركي الى معطف افرنكي كلها متعددة الازياء والاشكال تظهر أجسامهن من خلالها على اجمل هندام . وهذا غير الاشرطة المندلية كأنها حمائل سيوفها القامات .

أن المريض في ساعته الاخيرة لايفعل غير ذلك فهو يسكن تارة ويتحرك تارة . يتلوى من جنب الى جنب . فتلك الحركات السريعة التي اخذ يتخبط الحجاب فيها ماهي الا احتضار مؤذن بالزوال . وليس هذا بغريب ولكل زمان دولة وحكم والعادة كما تكون في بقاء الحجاب لسبب اجتماعي فقد تكون في زواله لسبب اجتماعي آخر .

بين الماضي والحاضر

البناء الشرقي — البيت الشرقي معمل مستقل — سيدة العصر الماضي — رجال العصر الماضي — كرم الضيافة — الدين — الخدم — البناء الحديث — الاجتماع في المنازل — انصراف الرجال الى الخارج — الاسراف في اللهو — سبب من اسباب الفساد

ربما حسن الان بعد ما تقدم أن نسوق للقارىء صورة صحيحة من العهد السالف وصورة من العهد الحاضر حتى يتمكن من المقابلة بينهما ان يدرك الى أي حد ضاعت آثار ذلك العهد المبكي والى اي حد سرى فينا سم المدنية في العهد الذي اصبحنا فيه

كانت دورنا فيما مضى على الطراز الشرقي الانيق ذات افنية فسيحة يتخللها في بعض الأحيان فساقي جميلة وحدائق ناضرة يحيط بها من الخارج سور عال .

وما كان يخلو بيت من مكان فسيح للضيفان مناضده بعرض جدرانه التي كانت هي وباقي حيطان البيت مزينة بآي القرآن — وبعض الأحاديث النبوية والحكم اذكر منها : «ادخلوها بسلام آمنين . توكلت على الله . أن الله جميل يحب الجمال . عز من قنع وذل من طمع . ايها الراحمون ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » مما كان كألسنة صامتة تدعونا كل يوم الى النشاط والعمل والقناعة والرحمة .

وكان لكل منزل حمام مستوف شرائط الصحة وفرن مستكمل الاداة

وبئر لاستخراج الماء وأسطبل للدواب فكان البيت في الحقيقة مصنعا مستقلا يصرف ربته عن الخروج وحسبها ان تهيء لأهل المنزل ما يلزم لهم من الثياب والاشراف على غسلها ونشرها ثم طيها (وما عهد الجندرة ببعيد) ثم تدبير الخبز اليومي والطبخ واعداد المائدة وغير ذلك من الواجبات الكثيرة والبيت مملكة الزوجة

نعم أن معارفها كانت قليلة فقلما كانت تقرأ أو تكتب او تعزف ولكن مطالب المنزل مع ذلك كانت كافية لمضاعفة جهودها والقيام بأمور واجبها نحو نفسها ونحو زوجها وأولادها حتى انها كانت اذا خرجت ضلت الطرق وحتى بلغ من التفاخر بكمالها والتحدث باحتجابها أنها ما كانت تكشف عن وجهها أو جسمها لطبيب ولو في أشد حالات المرض

اما الرجال فما كانوا يعرفون السهر خارج بيوتهم. يجتمعون كل ليلة عند أحدهم حول مائدة واحدة وسطها فارات الشاي والقهوة يسمع لغليانها زفير لطيف ناعم وهي دائمة الاتقاد والقصبات الطويلة (الشبكات) لا ينقطع منها الدخان الشرقي لمن اعتاده والبخور ينتشر في جوانب المكان فيطهره ويعطره وهم يقطعون سهراتهم بالحديث الرقيق المنزه عن فحش القول فكانت قاعة اجتماعهم ملجأ أحسان وكرم وأدب وكان اجتماعهم سببا من أسباب الألفة والحب وهم على مقربة من ازواجهم مطمئنات عليهم ومطمئنين عليهن

وكانت الضرورة القصوى وحدها هي التي تدعو السيدات الى الخروج لزيارة اقربائهن ولكن نادرا وقد لا يتكرر ذلك في السنة ولهذا لم تكن بحاجة الى غير ملابس البيت يكفيهن على كل حال نقاب محتشم لا هو بالسميك فيؤذي وجوههن ولا هو بالرقيق فيبين عن محاسنهن وخمار ربما شاركهن اعمارهن

اما الرجال فما كان يرتدي غير ذلك الثوب الشرقي الجميل الفضفاض الملائم لراحة اعضائه ومناخ بلده لا يزيد عن العمامة المهيبة والقفطان القطني المتموج وتلك النعال الحمراء الزاهية

تلك كانت حياتهم قديما وما كان أسعد كل أسرة بها وما كان أجلبها لسعادة المجموع وكل شيء من خيرات البلد وحاصلاتها يخرج من مصانعه وتهيئه أيدي أبنائه وفي ذلك خير ضمان لنماء الثروة العامة وخير ضمان للناس يحول بينهم وبين الفاقة

ومن حسنات الزمن الماضي تمسك أهله بالدين لأن الأديان تدعو كلها الى الخير وتغسل النفوس من ادران الفساد وتخمد نار الشهوة وتطهر الضمائر باعثة على النشاط داعية الى العمل طاردة عن الأجفان سهد اليأس محلّة محله فيها لذة الأمل وحلاوة الطمأنينة

وبمثل هذا خلصت نواياهم وصفت قلوبهم فتحابوا وتآلفوا متساعدين متساندين

ولقد روى صديق لي من بقايا ذلك العهد أنه كان يجتمع عند لفيف من رفاقه في منزل أحدهم ولكن واحدا منهم غاب ليلة فالتمسوا له عذرا الا أنه طال احتجابه فجزعوا وقد ذهب بهم الظن الى انه مريض فعقدوا النية على زيارته وأخيرا علموا أن سبب انقطاعه كارثة اصابته لأن دائنيه كانوا على وشك بيع داره في دين لهم فلم يسعهم الا ان تقاسموه ووفوه عنه بغير ان يعلم وعند ذلك بكى محدثي فأبكاني وقد ذكرت ما يجري الآن تحت عيوننا والولد يأخذ بحقه صكا على أبيه وكذلك الأب على ولده بل كثيرا ما دفعت

الشهوة الفاسدة والطمع ابا فقتل ولده وولداً فقتل أباه وأن من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم

ومما لا أنساه خدام ذلك العهد — وكان الناس يحصلون عليهم من طريق الشراء — ولكنهم مع ذلك ما كانوا ناقمين على حريتهم المسلوبة راضين متفانين لأن مواليهم كانوا يعدونهم منهم يكرمونهم ويشفقون عليهم حتى كانوا يدخلونهم في اوقافهم اسوة بابنائهم وذراريهم

* * *

اما حياة العهد الحاضر فقد مسخت محاسن تلك الحياة الهادئة فلا تجد في اكثر المنازل اسلوب مباني العهد الماضي وقد التصق الباب بالسلم فلم يعد للضيافة مكان الا نادرا وصار الناس يجتمعون خارج بيوتهم وقد انتشرت المخازن العامة وحمامات السوق والمطاعم ومشارب القهوة والخمور ودور الميسر وأماكن اللهو انتشارا مخيفا حتى اضطرت الحكومة في رخصها ان تحظر على الخمارين فتح حوانيتهم على مقربة من المساجد والمدارس

ولقد كان من أمر هذا التبدّل أن هجر الناس بيوتهم الى تلك الدور تسرق أزمانهم وتستنزف اموالهم وتعبث بأخلاقهم حتى أصبح كثير من الفتيان الصغار يدخنون ويقبلون على مشارب الجعة ويخرجون عن الحد في لباسهم وزينتهم في غير استحياء

وبينما الأزواج في لعبهم ولهوهم على ما سلف ترى نساءهم لا تذوق اجفانهن غمضا مروّعات منتظرات حتى اذا جاؤا وقد مضى أكثر الليل اندفعوا الى اسرتهم على أثر ما يكون قد نالهم من اعياء السهر أو تعب الشراب

وهكذا اوصدوا قلوبهم في وجوه نسائهم المسكينات وقد كانت محراب حبهن وقبلة آمالهن حتى اذا دام ذلك الحال أخذت الصلة التي تربطهن بهم في الفتور والذبول

ولكن الفراغ الذي يتركه من خلفه مثل هذا الحب البالى يتهيأ في الغالب لأشد منه لأن الهجر الذى يقتل حباً قديماً يخلق بدلا منه حباً آخر قوياً متقداً كالريح تطفىء لهب الشمعة ولكنها تساعد على اشتعال النار

وما دام ان حمل التكاليف الملقى عليهن قد خفّ بعد أن صار الخبز يجلب من السوق والماء والنور من الشركات وبعد أن انتشرت مخازن الأقمشة ودور الخياطة فقد أصبحت السيدات بحاجة الى الخروج لقضاء حوائجهن والتزاور للشكوي وللأخذ والردفيما لا ينفع من الحديث حتى انتهى الأمر بأكثرهن الى الجرأة فالفساد . والعفاف كالمعدة اذا لم يجد ما اعتاده من طعام لزوجية الطاهر فقد ينصرف الى غيره من خبيث الطعام .

كم زمان بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه



العصر الجديد

لم تكن المرأة فيما مضى مستعمرة للرجل . ضرورة تعليم الفتيات سلاح المرأة الخفي . بين الباريسية والمصرية . الترام . أساليب التجار . النساء قوامون على الرجال . أيام الزيارة

لقد استعرضنا أدوار الزمن المنصرم وما كان له من التأثير في المرأة المصرية . ورأينا كيف انها كانت فيه خادمة بيتها أمينة على مصالح زوجها وأولادها ولكن مما يجب أن نعترف به أنها كانت أيضاً محرومة من نعمة التعليم والحرية

ولا نظن أنها كانت حبيسة دارها لأن أسلافنا نظروا اليها من ناحية واحدة هي ناحية استخدامها واستغلالها واتخذوها كمستعمرة لا كزوجة شريكة ولكن لأن اخلاق ذلك الزمان وعاداته كانت تقضي بذلك

على ان لكل زمان دولة فصرنا الى زمن من حسناته اتصال البلدان ببعضها وقد طوت سهولة المواصلات ما بينها من البعد وساعدت على ايقاظ النفوس الناعسة بنشر الافكار

وهكذا كتب لمصر ان تغترف مع المغترفين من بحر المدنية الحديثة فتبدلت الحال وأصبح ما كان في خبر كان حتى ليكفي أن نوازن بين امرأة العهد الحاضر وامرأة العهد الغابر لندرك ما هنالك من الفرق الكبير بين العهدين

ولئن أسفت على العهد الماضي لحسناته التي أشرت اليها الا انني مع ذلك كنت انتظر اليوم الذى ينتشر فيه تعليم الفتيات فيقربن بحصتهن من سعادة

البيت لأن التي تدير حركته من طريق الاستقلال والعلم خير كثيراً من تلك التي تدير أموره من طريق الجهل والانكماش

ولقد كان من تأثير هـذه المدنية السريع ان شعرت السيدة المصرية بالسلاح الخفي الذى مهرتها به الطبيعة واصدأته ظروف العادات الاولى وهو الجمال والرشاقة وقد كان لهما من قديم اله معبود فأخذت تعني بهذا المنجم الثمين وأخذت ترفع عنه ذلك الغطاء الثقيل الذي سترته به تلك العادات

أصبحت السيدة المصرية حرة طليقة فخطت خطوات واسعة في سبيل زينتها وتجملها قبل ان تخطو هذه الخطوات في سبيل التهذيب والتعليم فكانت تلك الحرية سلاحا ضاراً

واني لأذكر ما نشرته مرة مجلة المطالعة للجميع (Lecture pour tous) الفرنسية عما تقطع به الباريسية يومها ولا يخرج عن ثلث النهار في الزينة وثلثه خارج البيت غير ما تقضيه من الليل في دور التمثيل وسواه

وسواء أكان هـذا صحيحا أم مغالى فيه فأن المصرية المنعمة اصبحت تكاد لا تعمل غير ذلك

فقد يضطر زوجها الى الخروج صباحا لعمله أو لغيره وهي لا تزال في سريرها حتى اذا استيقظت اخذت في زينتها وماأطولها مابين تسوية شعرها المقصوص وكيه[1] والاصطباغ والتعطر ثم تخرج وفي يدها غرفة زينتها المتنقلة (حقيبتها) تاركة امر منزلها الى خدمها

---

(١) اعتاد اغلب السيدات الآن ان يذهبن الى حلاق خاص لأصلاح شعورهن — راجع قطعة «الذكرى» في آخر هذا الباب —

وقد يكون الترام وسيلتها مع أنها اقدر على اكتراء عربة اوسيارة فتقصد حجرة الدرجة الأولى المخصصة للرجال مع أن للسيدات مكانا خاصا ولكنها لاتقبل عليها خشية الاختلاط بالطبقات الدنيا من اهل المدينة . وهكذا تختلط بالرجال وقد يكونون من تلك الطبقات

ومن ألطف ماحدث مارواه صديق لي مرة . قال انه وجد الترام يوما مزدحما فأسرع الى حجرة الدرجة الأولى فاذابها مكتظة بالسيدات وبرجلين وكان مكان السيدات خاليا فقصده ولكن سرعان ما اتجه الكمساري نحوه صائحا : هذه للسيدات يا افندي !

واذا أمّت السيدة بعد ذلك دور المتاجر الكبيرة استقبلها عند الباب سرب من الخدم ينحنون أمامها ويتلطفون معها ويصقلون عبارات الترحيب والثناء على سمعها وهم يعلمون ان زمام المرأة في عينيها وأذنيها فلا تقع عيناها الا على حركات أدب ولا تسمع أذناها غير عبارات احترام صاعدة الى سماء المكان كما يصعد البخور الى قباب المعابد وعند ذلك تشعر بأن لها مقدارا ومكانة فتتخطر من بينهم الى حيث تبتاع ما تشاء

ولقد بلغ من اساليب التجار أن افرد بعضهم على ما يروى في حانوته مكاناً خاصاً لاستراحة السيدات وقد أعدّ لهن فيه كل ما طاب ولذ من صنوف المرطبات والحلوى حتى انهن قد لا يدخلن هذه الدور الا لتذوّق طعم ذلك الاكرام وقد صرن يشعرن عندها بجو خاص يرفع من أقدارهن

ثم من هي السيدة التي يكون هذا شأنهم معها فتخرج بغير ان تشتري شيئاً مهما كانت الحاجة اليه تافهة أو معدومة . وهكذا ملك الغرور النفوس،

واختلت ميزانية البيوت وبمثل هذا عمرت هذه الدور حتى انه ليتوقف ربحها الكثير على هوس كثير من سيداتنا

وما دام هذا السبيل هو الوحيد الذي يحقق مثل هذا الكسب المستمر وما دام أن طيش اولئك السيدات وغفلتهن وعبادتهن لمظاهر المدنية الفارغة يدفعهن الى اشباع شهوة التقليد الأعمى المجرد عن الحكمة والاعتبار فقد اخذ اولئك الناس يغروهن بشتى الأساليب ما بين نماذج يطوفون بها على البيوت وتماثيل من الشمع يعرضونها في مقدمة حوانيتهم وهي في زي شرقي يعدلون فيه من وقت لآخر كلما سنحت الفرصة وما عهد الأزياء التي انتشرت على أثر اكتشاف قبر توت عنخ أمون ببعيد

ولقد كان من جراء هذا التطور الجديد ان سيدة العصر الماضي التي كانت في حديثها وحركاتها وزيها لا تلفت نظر زوجها أصبحت الآن صورة أخرى من صور الحسن والرشاقة والخفر ولطف الحديث الرنان الناعم حتى نبهت شهوة الزوج النائمة اليها وجعلته يزهو بها ويفتخر فبلغ من أمره معها أن يرافقها احيانا في الخارج وهي على تلك الصورة التي سبق لنا وصفها بغير ان يخجل أو تستحي

واذا كان مقام السيدة المصرية بلغ هذا الحد عند زوجها فكيف لا تحدثها نفسها بالتسلط عليه . وهذا ما وقع لسوء الحظ فأصبح يتحاشى أغضابها ويتهالك في رضاها وهكذا أصبح الأزواج ملوكا غير متوجين وأصبح النساء قوامين على الرجال

ومن حسنات المدنية الجديدة أيام الزيارة على غير ما كان مألوفا عندنا . واذا سأل الزوج امرأته عن هذه البدعة المستحدثة اجابته أنها نظام حسن

أقل ما فيه الاقتصاد في الزمن ما دام ان صاحباتها يزرنها مرة في الأسبوع في يوم محدود . ولكنها مع ذلك تخرج كل يوم لأن لكل واحدة يوماً كيومها حتى كاد يتمنى الزوج لو ان له هو ايضاً يوماً تزوره امرأته فيه ...

واذا كان هنالك سبب مزعج من اسباب العدوى فأنه ذلك اليوم الذي تتبارى فيه الأزياء والخلاعة والأحاديث الخاصة .

على ان اسباب الفساد اكثر من ان يحسبها عد منها الأناشيد المنتشرة الآن سواء بطريق الألسنة او بطريق الآلات الحاكية (ومنها الرقص الغربي الذي انتشر وذاع وسنتكلم عنها في بابين خاصين) ومنها التمثيل الخليع وقد ضج الناس منه وكتبت الصحف اليومية وغيرها غير مرة عنه وكذلك دور السينما لأنها في بعض الأحيان تمثل قصصاً خاصة تضطر الى التنبيه عنها وتحذير السيدات والعذارى من حضورها ومع ذلك فأنهن لا يمتنعن عن مشاهدتها لأن مثل هذا المنع انما هو حض اكثر منه نصح يدفع النفوس بالعكس ما دام ان الشيء الممنوع محبوب عادة . ولا تخرج حجة الزائرات عن ان ما يمثل مهما كان من امره فأنه لن يؤثر في نفوس الطاهرات الشريفات وقد فاتهن ان النفس البشرية ضعيفة وأن سلطان العقل لا يقوى دائماً على سلطان القلوب الجبار

الذكرى

وكم توسلت اليها أن تبقي عليه .

ولكنني حين دخلت عليها كان قد نفذ السهم ووقع المحظور وهي ممسكة بخصلة شعرها الطويل الجميل ودمعها كاللؤلؤ ينحدر فوق خديها المورّدين .

وعند ذلك تملكني البكاء كما غلب عليّ الضحك ذلك الضحك العصبي الذي تقذف به ثورة النفس المضطربة المعذبة فأدارت عينيها الى جهتي ثم عادت الى استغراقها السابق فسألتها : ماذا يبكيك بعد أن مضت يداك الناعمتان في ذبحها بحسنه . وما الفرق بينك وبين القصاب يسبّح بيده اليمنى ويذبح بالأخرى ، فصاحت أتهمني أنني مثله منافقة ، قلت حاشا . ولكن علام هذه الدموع وقد كان في يدك حبسها . وماذا ينفع التفكير في هذه الخصلة بعد أن قسوت عليها رعبات بها .

وعند ذلك ارتمت فوق مقعد قريب والخصلة تحتضر بين يديها وانشأت تقول :

كان في مقدوري أن اتمم وهذا الجديد آخذ بخناقي مساول ... أخي ، لا انكر ان هذه الخصلة كانت زينتي وكانت مستودع ... بأسراري . وكانت تلمس قبلاتك وتمس أصابعك تشمها وتصبها ... من خلالها كالبدر انشق من جرف الليل أو كالصورة ... من اطارها لا يغرني ... ولكن هذا الجديد هو الذي دفعني الى ... هذا الجديد الجبار هو الذي اقامني وأقعدني . ... ولكنه ... الآن قد انثنيت مكرهة ... ذلك ...

ما بينك وبيني من صلة الحب . ولكن لا تلمني بعد ذلك على أن املأ منها عيني وانثر فوقها قبلاتي وأودعها انفاسي ودمعي ودمي . أننا نبكي في الحياة على كثير من أمورها التي ليست منا ولا هي بأكرم منها . نبكي كلبنا اذا ضل وهرتنا اذا نفقت . ونبكي أيضاً على ما هو أقل من ذلك شأناً . فكيف لا تنحدر عليها مدامعي في هذه اللحظة التي جمعت بين قسوة الزي وقسوة الوداع

نعم ان شهوة متابعة الأزياء شهوة جبارة قاسية تدوس بقدميها فوق كل شأن عزيز . وفي رأيي ان حكمة جز الشعر لم تقم على اساس من التجمل وانما على افتتان النساء بمساجلة الرجال ومحاكاتهم في كل ما هو من خصائصهم من امور الحياة . وهو مما لا ترضاه الطبيعة التي شاءت ان يكن لا لبء اصداءها البيوت

ولقد كان من أمرها بعد ذلك أن همست بصوت خافت : أنى يجيء هذا اليوم الذي ينمو عنده شعري ويعود كما كان

قلت ان هذا اليوم سيأتي على كل حال . ولكنها خنقتها العبرات حين وضح لها أنها ستنتظر زمناً طويلاً عطلا من حسن هذه الحلية

وهكذا كفرت عن تسوتها وكانت أول من انتفض على سلطان الازياء

وعند ذلك قمنا الى قطع زينتها ونوسد [illegible] الجميلة حتى [illegible]

ولكن بعد ان ضممنا [illegible] قبلتين حارتين ترددت [illegible]

ولقد اصبح من اسباب الفساد بفرنسا ايضاً الكتب والصور حتى ان المسيو أدموند داروكور وضع في ذلك رسالة قيمة عنوانها [illegible] الأخلاق بالكتب والصور » — ([illegible] les images — طبعت في سنة ١٩١٧ بمطبعة [illegible] بباريس [illegible]

ان الصغار يتأثرون بالصور والكبار يتأثرون بالتصور وان الكتاب والمصورين واصحاب المطابع خرجوا عن الحد فأصبحت الكتب والصور من بعض الأخطار على العفاف وان الحكومة التي تهتم لأمور الصحة العامة يجب عليها ايضاً ان تهتم لصحة الاخلاق .

الرقص والمراقص

تعريف الرقص . الرقص قديما وحديثا . الرقص التمثيلي . رقص السيدات مع الرجال . رأي الفونس كار وروشبرون

الرقص قديم كالزمان. وهو عبارة عن تحريك الجسم حركات متوازنة فهو من هذه الوجهة محمود لأنه نوع من الرياضة

وقد كان للرقص في العصور الاولى عند الافرنج شأن في الحفلات الدينية بالمعابد والهياكل حتى قال عنه أناتول فرانس « أنه صلاة » ولكنه خرج بعد ذلك عن هذا الغرض فأصبح نوعا من انواع التسلية واللهو

اما عند الاغريق فقد كان أصلا من اصول التربية واما الرومان فأهملوه الا انهم في آخر حكمهم اقبلوا عليه ولكن من طريق الاستمتاع وبذلك اصبح مهنة خاصة لا يزاولها غير الراقصات كما كان الحال بمصر من عهد غير بعيد

ولقد بلغ الرقص أوجه الآن بأوربا فتعددت اسماؤه والوانه وقواعده حتى صار كبعض الفنون له مدارس خاصة يتخرج فيها السيدات والرجال وحتى اصبح من اهم اركان التمثيل

ولـكن حسبك منه لباس الراقصات الملتصق بأبدانهن وهو بلون البشرة حتى لتحسبهن عاريات وحسبك أيضاً ما في حركات هـذا الرقص من انواع الخلاعة السالبة للالباب الى حد قد لا يتمكن المرء عنده من ضبط نفسه حينما ترفع الراقصة في الهواء ساقا بعد ساق

اما الرقص المباح للافراد والعائلات فهو ان كان اكثر احتشاماً من مثل هذا الرقص الا ان السيدات حين يذهبن الى المراقص يرتدين مع ذلك اثوابا خاصة مثيرة وهو مباح بين الحاضرين بغير استثناء حتى ان السيدة اذا تقدم اليها راقص قد لا ترفض لأن في ذلك خروجا عن ادب اللياقة وجرحا للشعور ورميا للمتقدم اليها بالبعد عن الحياء والعفة وهما مفروضان اصلا .

والآن تصور على اي منهاج يكون هذا الضرب من الرقص فان الرجل يطوّق خصر رفيقته بأحد ساعديه ويمسك بيده الأخرى احدى كفيها ثم يدوران في المكان ولأرجلهما اجتماعات وافتراقات ونقرات وارتفاعات تشترك فيها مع توقيع الموسيقى . وبينما هما كذلك وصدرها عارٍ يكون وجهها الى وجهه وعيناها الى عينيه فتتعانق النظرات وتمتزج الانفاس وقد يكون اجمل من زوجها وقد يكون جريئا فيهمس في سمعها بعض كلمات ساحرة ولو من طريق الثناء على حسنها وملاحتها مما يستحيل ان لا يترك ولو بعض الأثر في نفسها حتى قال روشبرون « ان المراقص ينعقد فيها الزواج وينحل ايضاً »

ولماذا اذهب بالقاريء الى بعيد وهذا ما كتبه الفونس كار في روايته تحت ظلال الزيزفون التي نقلها الى العربية فقيد الادب المنفلوطي :

« . . . ولقد بقي وحده على الباب يستشف من الواح زجاجه ما وراءها

من المناظر فرأى الراقصين والراقصات يسبحون في بحر من الهناء والسرور ويطيرون في اجواء مختلفة من اللذائذ والمناعم فظل يدير عينيه بينهم يفتش عن مجدولين حتى لمحها ترقص مع رجل فتبينه فأذا هو صديقه ادوار . فلم يأبه لذلك كثيرا الا ان ما راعه وازعجه وكاد يطير بلبه هو أنه رآها في ثوب رقيق شفيف لا يكاد يحجب جارحة من جوارحها وخُيّل اليه ان صدرها ملتصق بصدر مخاصرها وأن رأسها ملقى على كتفه وخدها تحت متناول قبلاته وأنه يحتضنها اكثر مما يخاصرها . . . هذا شأن الراقصين والراقصات وهذه اثوابهم التي يلبسونها ومواقفهم التي يقفونها برهم وفاجرهم تقيهم وعاهرهم»

وما كنت بحاجة الى الخوض في عادة غريبة عنا لولا أنها أخذت تندس ايضا بين عاداتنا حتى كأن المدنية الغربية أقسمت ان لا تترك في اخلاقنا فراغا الا تسرّبت اليه ما دام أن نساءنا انفسهن لا يرين منها بناء قائماً الا تناولنه بالتخريب والهدم

أما احكام الائمة وأما اراء المجتهدين من فقهائنا فرحمة الله عليها وقد كانوا يحرمون حتى النظر عند خوف الفتنة واللمس اذا جر الى شهوة

الاناشيد

ماهيتها ومزيتها . شأنها عند الغربيين وعند اسلافنا . القصائد . الطقاطيق . نماذج من الأناشيد الحالية وخطرها على الاخلاق . لجنة تقويم الاناشيد . يقظة الحكومة

الأناشيد شعر أو كلام مقطع مقفى جرت العادة بالتغني به وهي قديمة وان اختلفت كلاما ولحنا باختلاف البلدان . ولهذه الأناشيد تأثير فعال في الناس تصفو عند سماعها نفوسهم وتشعر بالطرب واللذة لأنها تصرفها عن

الشعور بالهموم والتعب ولهذا كانت لازمة للجند وفي بعض حالات مرضية خاصة

ولقد عرف الغربيون قيمة هذا الفن فعنوا به وجعلوه فوق ترويحه عن النفس وسيلة الى تهذيبها وتقويمها ولهذا تجده عندهم يتناول كل سبب من أسباب حياتهم حتى أنهم أفردوا لأقسامه تبعا لما لها من التأثير مسميات خاصة منها المحزنة والمضحكة والهازلة والجادة وغيرها

اما عندنا فان الاناشيد لسوء الحظ وقفت عند حد واحد صرنا لانستفيد منه غير ألهاب حواسنا وشهواتنا فكانت عونا خطيرا على تهيئة نفوسنا للفساد

وما كانت الموسيقى هكذا عند اسلافنا فأن شعرهم (وما كان يغنّي غيره) كان يطرق كل سبيل من الحماسة الى الفخر الى الحكمة الى الخمر الى الوصف والى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر . ولكن العصر الذي صرنا اليه زال فيه سلطان تلك الحياة الأولى فجمدت الموسيقى وافتقرت حتى أصبحت من اكبر أسباب تأخرنا

ولما انتشرت اللغة العامية انصرف الناس عن سماع القصائد لاستعصاء فهمها عليهم وبعدهم عن جمال اللغة فأخذوا يسبكون اناشيدهم في ارجوزات عامية منها نوع مستحدث اطلقوا عليه اسم الطقاطيق شاع في مصر الآن شيوعا كبيرا فكان آخر معول من معاول هدم الادب والآداب

وربما كان القارىء في غير حاجة الى تكرارها ولكنني اذكر منها بعض مقطعات على سبيل الأفادة

١ — بعد العشا يحلى الهزار والفرفشه

٢ — (مذهب)

ونا نيمه كترت الأحلام

(دور)

الحلو قاعد فِ الدّهبيه   بدراعين بيض زي الليه

ولفهم الاتنين حوليّا   وصار يقرّب فمّه عليّه

من كسوفي عملت انا نيمه

٣ — (مذهب)

بالذمة قولولي   ياريحين المدبولي

(دور)

ألقاشي حياه نافعه   للي فايتني جمعه

يامدبولي لك شمعه   لو كنت تبعتولي

٤ — ماهي هيّا اللي قالت لي   روح اسكر وتعال علبهلي

٥ — اللي بحبه دلعه يجنن   يضرب بيانو وبرده يدندن

هاتي لي حبي يانينه الليله

٦ — (لازمه)

ما تخفشي   عليّه   دنا وحده   سجوريه

في   العشق   يا أنتا   وخده   البكالوريه

ما تخفشي عليّه

ما   دام   الباب   من غير بواب . الخ

ومنها أيضا انا لما استلطف ميهمّني بابا
بسّ انت اتعطف وتعالَ امبابه
خدني ف دوكه جوّ فلوكه
العب وياك لعبه على كيفك

والآن هل يرى القاريء في هذه المقطعات وهي قليل من كثير الا مقياسا مؤلما لما وصلت اليه حالة الأخلاق

واذا كان الذين يضعون مثل هذه الاناشيد لا يمليها عليهم الا مجرد الوجدان او الخيال فهم آثمون مفسدون ثم ماذا ابقت هذه الأناشيد من رضي الأخلاق بعد أن أصبح الحرام حلالا والعقوق بدعة وبعد ان تطلب الفتاة الى امها ان تجمع بينها وبين حبيبها وبعد أن تنذر النذر حتى لأولياء الله ليكونوا سبيلا الى هـذا الغرض . . . ولـكن ربما كان لهن العذر « ما دام الباب من غير بواب »

أني من عشرين سنة تقريبا كنت اسمع غير هذا النحو من الأناشيد أذكر منه « وبسته ريال يابا جوزني ـ احسن م العار يابا سترني » فأضرب كفا على كف لا تتقال حالتنا الأخلاقية من ذلك الكمال الغابر الى هذا الضلال الحاضر لأن تلك الأغنية التي عفا الآن أثرها لا تقل في جمالها عن معنى ما سيراه القاريء في قطعتي « النار وارحمني » وقد جاءت على لسان فتاة ساذجة تستحث اباها ليأخذ يدها في سبيل صيانتها قبل ان تتعثر قدماها في مزالق الفساد

ومن ألطف ما حدث لي ان أحد الملحنين (المؤلفين في النغمات[1]) سألني مرة ان اضع له قطعة من النوع الجاري الآن فأعددت له القطعة الآتية:

متقللي هوّ انت اتجنّيت　　ده الفجر لاح ساعة ما جيت
هي السعاده ف غير البيت　　والهلس قنديل من غير زيت
يا رتني مجوّزت يا ريت

الوحده ليه جوزها يخونها　　دار ميسأشي عنها
حطّا مقامه في عيونها　　مش زي متصونه يصونها
يا رتني مجوّزت يا ريت

يا غلبها تصبح وتبات　　ودموعها سايله علْ وجنات
ياما سقاها الهم كسات　　ويامَ خدلو منهَ رآت
يا رتني مجوّزت يا ريت

ولكنها لم تعجبه مع ما فيها من عفاف وعتاب بين زوجين بحجة ان الناس اصبحت نفوسهم الآن لا تميل الى مثل هذا الضرب . . .

ولقد سبق ان شعر عقلاء الأمة بما لهذه الاغنيات المنتشرة من الخطر

ففكر معالي جعفر والي باشا في تشكيل لجنة من كبار الأدباء والكتاب لوضع حد لها وترقيتها ولكن اللجنة بعد ان اقرت النشيد الوطني الذي وضعه امير الشعراء (بني مصر مكانكم تهيّا) وقفت عند هذا الحد

ولكنّ خطر انتشار مثل هذه الأناشيد لا يقل عن خطر المواد المخدرة

---

١ — هو المرحوم ابراهيم افندي القباني

التي عكف عليها الناس واقامت آثارها المحزنة الحكومة واقعدتها فعدلت في قوانينها وشددت العقوبات فيها

غير ان الحكومة من حسن الحظ وضعت هذه المسألة في هذه الأيام موضع العناية وقد احسنت لأنه اذا كانت تلك المواد من سموم الذكاء فهذه لا تقل عنها لأنها من سموم الاخلاق

عدوى الافكار

منشأ هذه العدوى — سببها — شياطين الأنس — ارحمني — النار — جناية في روسيا — تعليق)

ان الأفكار كالأمراض تنتقل الى ما جاورها بطريق العدوى .

وكما ان استعداد بعض الأجسام يجعلها مرعى خصيبا لفواتك الأمراض فكذلك النفوس تبعا لما يحيط بها من المؤثرات تكون مرعى خصيبا لسموم الأفكار

وليست هذه الظاهرة بحاجة الى دليل وفي كل يوم تقع عيوننا على ما يؤيدها من المشاهد العديدة المختلفة حتى اننا كثيرا ما تلوك السنتنا هذه العبارات : « خذ الجار قبل الدار — الوحدة خير من جليس السوء . قل لي من رفيقك أقل لك من أنت. »

وقد يكون منشأ هذه العدوى تسلط بعض الافكار القوية على غيرها بسبب ما يكون حاصلا من التفاوت بين العقول كتأثير الرجل على الطفل والمعلم على التاميذ

وقد تكون هذه العدوى لسبب آخر خارجي كتأثير المرأة على الرجل العاقل احيانا اذا كانت فتانة وكتأثير الرجل الفاجر على المرأة او الزوجة اذا لم يكن لها من حيائها أو زوجها عاصم . وكتأثير الدجالين على السذج من الناس لخشيتهم من كارثة مقبلة او أملهم في بلوغ غاية وكتأثير الخطباء على الجموع في كثير من المواقف التي تهيئهم لذلك

ولا يحصل هذا التأثير غالبا الا اذا اصبح اختلاط المرأة بالرجل الغريب عنها مباحا أو ممكنا .

وقد رأينا مبلغ ما يكون من الفساد عند اختلاط النساء ببعضهن خصوصا اذا كانت نفوسهن مهيأة من قبل له وقد انصرفن عن الدين وتخلين عن مشاغل البيت الى غير ذلك من الأسباب

واذن فماذا يكون من أمر المرأة اذا احتك بها الرجل وهو أقدر على أساليب الاستهواء والاستدراج والخداع سيما اذا كان جميلا رشيقا طيب الرائحة نظيف الثوب حلو الحديث

ينظر هؤلاء الفجار أولاً الى المرأة نظرة عميقة يستشفون من ورائها مافي نفسها من حاجة أو ضعف فيسدون فراغ الأولى وينفخون من بوق فجورهم في الثانية وهكذا يهبئونها رويداً رويداً الى السقوط

وانك اذا رأيتهم في أول الأمر لا ترى الا أدباً جما وحديثاً بريئاً يتغنون بالعفة ويظهرون في حلة أنيقة من محاسن الأخلاق . وبمثل هـذا الأسلوب ينتزعون من خواطر المرأة كل سبب من أسباب الريبة وسوء الظن فتعتمد عليهم وتفتح صدرها لهم حتى اذا وقعت عيونهـم على ما هـو دفين فيها من أسرار انتقلوا الى النصح والهداية والأرشاد على أسلوب

لا يدع في نفسها مجالا للشك فيما يتظاهرون به من طهارة المشاعر وصفاء الاخلاص وبهذا يزدادون من نفسها ثقة وتزداد عليهم اعتمادا

ومتى قطعوا هذا الشطر من طريق تدبيرهم هان عليهم اجتياز الشطر الاخير بالتضحية من جانب وبالتأثير من جانب آخر فلا تشعر الا وقد وقعت في شبكة محكمة من غرضهم الذي ستروه بمثل ذلك الادب والنصح والانعطاف

ان مثل هؤلاء الناس شياطين في صور بشر فالويل لمن يقع في فخاخهم لأنهم كالزهر نضعه في غرفنا في المساء فيخنقنا في الصباح ومهما كان من عفاف المرأة ومهما كان من حيائها فان البعد عن هذا النفر من الناس أسلم عقبى

على أن الحوادث الدالة على ما لهذا الاختلاط من مرير الاثر أكثر من ان تحصى وهي تجري بين عيوننا كل يوم ولكنني لن أذكر شيئاً منها مكتفيا بما كتبه حكماء الافرنج عنها ولا بأس من ذلك والفساد لا يتقيد بمكان مادام غذاؤه قلب كل امرأة وجرأة كل رجل في كل صقع وما دام أن الطبيعة البشرية واحدة في كل مكان

— ارحمني —

عزيزي

كم ترددت قبل أن أرسل اليك بهذه السطور وأنا كلما كتبت شيئا مزقته وأخذت اكتب من جديد .

ولعل السبب في ذلك عيناك الجميلتان فقد كنت كلما حولتهما الى جهتي ذهبت عني خواطري ونسيت عندها نفسي . أشعر بالسعادة الى جانبك ولكني أفر منها الى ركن مظلم أختفي عنده حتى لاتنفذ نظراتك الى قلبي

ولا أدري اذا كان من سوء حظي وحظ زوجي ان جمعتنا بك تلك الليالي المعدودات بكاليه . فأنك حين زرتنا لأول مرة لم تجد نفسك الا في منزل بسيط بين فرش بسيطة وعند غذاء بسيط وأن كنا مع هذه البساطة بذلنا كل ما في وسعنا لاكرامك

وكم كان مبلغ خجلنا على أثر انصرافك وقد أيقنا انك لن تعود بعدها الينا . ومع ذلك فقد عدت وأدخلت في قلوبنا السرور

ولقد كان الحياء في أول الامر يغلب عليّ حتى اذا تكررت زيارتك زال أثره من نفسي وقدخيّل اليّ أيضا انك كنت تخصني بها اكثر من زوجي

ولكني لا أفهم كيف وأنت في مقام يفتح لك كل مغلق من ابواب الاتصال بأرفع الطبقات وبأرقى النساء الجميلات يهون عليك أن تقضي ساعاتك الطوال عند فتاة مثلي ليس لها نصيب من الجاه او الرشاقة او العلم

ثم اني لا أنسى ذلك اليوم الذي وضعت فيه يدي بين يديك واخذت تنفث في اذني من سحر حديثك وأنت تقول انك لم تقع عيناك على أجمل مني وأنك لا تفكر الا فيّ ولا ترى ان تبذل حبك لغيري وكأنني اهتز عند حلم هاديء لطيف حتى كنت اتمنى عنده لو انني اظل تحت سماء ذلك الحلم فلا استيقظ

ولكم قلت انك لا يخفى عليك اخلاصي لزوجي وانك تحترم حيائي وانك مهما كان من امرك مع نفسك لن تتركني هدفا لاقواس المعصية وانت صديق زوجي تحبه وتكرمه ولكنك مع هذا كله كنت تطلب اليّ من طرف خفي ان افتح لك صدري بالحب

وهكذا ظفرت مني بما لم تظفر به من قبل من حيث لا اشعر فكم انت

قدير على امتلاك القلوب . حتى اصبحت كلما رأيتك انسى هذا الوجود وأنا فتاة ليس لها من العزم ما يعصمها

ولقد كنت اذا انصرفت يتسلل الألم الى نفسي ويعذبني ضميري وعند ذلك اتساءل هل ما زلت زوجة امينة ولكنني لا اتردد في أنني اثيمة لا استحق رحمة الفضيلة لتساهلي وان كنت لم تصل معي الى الخطيئة الاخيرة

لهذا اكتب لك اليوم لكي ترحمني وتقف عند هذا الحد معي حتى لا امد يدي بالمعصية الى ما بقي من طهارتي ثم ارجو ايضا ان لا تحدث نفسك من الآن بزيارتنا فلقد ملكني حبك حتى انني لأصبح لك عند اول مرة تحاول فيها ان تراني

ان زوجي الذي انت صديقه يحبني وهو فتى طيب القلب كريم . يقتل نفسه بالعمل في سبيل مرضاتي . ثم انك يا جاك لن تجد مني الا سلوة لحظة قد تصرف نفسك عنها لو شئت . اما هو فانني في عينه كل شيء وما له قلب غير قلبي يسكن حبه اليه . وحتى لو غفل عما يكون من امرك معي فأنني اقتل نفسي ولا اقدم على خيانته . واذا لا قدر الله واطلع على امرنا فأنه يسعى بنفسه الى الموت فنكون شريكين في التآمر على قتله ...

(النار)

نعم ياعزيزي راؤل انك ستدهش لسطوري هذه وربما تشككت في انها صادرة لك مني ولكن لا محل للشك وأنا التي كتبتها انا زوجتك قبل ان انحدر الى السرير الذي يضمني الآن وحدي بعد ان كان يضمك ويضمني

ولقد وضعتها تحت وسادتك فلم تقرأها لأنك لا تعود من سهرك الا في ساعة متأخرة من الليل . فاضطررت ان اضعها لك الليلة فوقها حتى لا تخطئها

لقد مضى على زواجي بك الآن ثلاث سنوات ربما لم تشعر بها . ولكني شعرت بها أنا اليوم لحادث وقع لي سأذكره لك . وقد تكون هذه السنوات الثلاث شيئاً كثيراً في عينك لكن اهلك وأهلي وصحابك وصحابي لايرون ذلك وما زالت تغمرنا نضرة الشباب وأنت رشيق وأنا جميلة فكيف يذهبون الى ماتذهب أنت اليه وأن كان امر الحب فيما بيننا الآن لم يعد سيرته الأولى

ولقد كنت حريصة على مراجعة التقويم اليومي فأدركت ذلك الزمن الذي مرّ على زواجنا وأدركت ايضا اننا ما كنا في خلاله كزوجين فانظر الى أي حد بلغ منك الشعور بالواجب

ولقد اخذتني من احضان اهلي عذراء الجسم والعقل اجهل معنى الحب ولا افهم من اموره شيئاً ولا اعرف من معنى الزواج اكثر من اننا سنعيش جنباً الى جنب كصديقين . ويا ليت الأمر كان كذلك

ولكنك استفدت من جهلي وزحزحت الستار لعيني عن أفق جديد ما كنت لأعرفه ولا تهيأت نفسي له. وما كنت اشكو من ذلك مادام ان هذا حكم العادة على ما يظهر ولكنها عادة قاسية جعلت الزواج اعتداء وغصباً بدلاً من ان يقوم على حسن التفاهم ويرتكز على التآلف والتجاذب ومع ذلك فأن الطبيعة لحسن الحظ مازالت واقفة بالمرصاد تصلح من أثرة الرجال

ومن هذا ترى ياراؤل انني لم اعط من الزمن الا قليلاً لكي احبك كعذراء بل كامرأة حتى انك كنت دائماً ترميني بحدة المزاج وأنت تقابل ولعي بالتراخي وأقبالي عليك بالانصراف عني

وهكذا لم ينصرم حبل السنة الأولى من زواجنا حتى تبدلت من

زوجتك خليلة يعلم امرك معها كل الناس مع أنها امرأة لا تصفيك الحب وانما تبيعك اياه وهي مع هذا تمد عينها الى سواك

على أن جزعي ما كان الا لانصرافك الذي فاتني تدبر حسابه في أول حياتنا . حتى كأنما قدر لي من اليوم الى الغد ان اغير بسببك نظام طعامي فأنتقل من الشهي منه الى ما هو دونه . وقد ينتهي الأمر بي الى الصوم فكيف جاز لمعدتي يا صديقي أن تعد لمثل هذا النظام وكيف خطر لك أن في وسعك تنظيم شهيتي على وفق ارادتك

اعلم يا راؤل انني امرأة طاهرة اتمنى لك السعادة ولا أدل على هذا من خطابي لك اليوم ومن صبري على هجرانك وانا ابكي ولا أجهر بالشكوى وتنتفض محاجري بالدموع وانا أحبسها ولكني في هذه المرة اطلب اليك ان تسرع فتنقذني من النار التي اصبحت على مقربة مني لأن الحادث الذي نوهت لك به نبهني الى أن ارادتي اوشكت ان تفلت من يدي وأن كل وسيلة أصون بها شرفك وشرفي صار زمامها عند غليان دمي وأن اتقاد ناري أصبح هدفا لا قبل فتنة تهب عاصفتها في وجهي

انك تعلم انني استقبل زواري يوما في كل اسبوع وكلهم من صحابك وصواحبي وبعض الشبان الذين قليلا ما نعرفهم ويفدون علينا معهم فاضطر الى الترحيب بهم وما اسهل ما تقبل المرأة على المتقدمين اليها لاسيما اذا كانت بائسة مهجورة مثلي . ومن منهم من لا يتودد الي ويسترضيني بل ويطمع في أن يحل في المكان الذي لك وحدك من نفسي لو ان الله قدر فدفعني القنوط الى خيانتك

في هذا اليوم عند الساعة السادسة والنصف على اثر انصراف زواري

وجدت نفسي وحدي مع احد اولئك الفتيان وقد شملتنا فترة من السكوت ولكنه انتقل دفعة واحدة من الحياء الى الجرأة فهجم عليّ وطوق خصري واخذ يمطر شفتيّ بوابل من قبلاته

ولا تظن انني قاومته يا راؤل او انني وجدت في نفسي القوة على دفعه عني فقد غلب على ارادتي عندها شعور خاص حبّب اليّ مداعبته حتى انني في تلك اللحظة لم يكن بيني وبين الخطر شعرة . ولقد جرأه اقدامه على السير بي الى ابعد مما سلف لولا ان دخلت علينا بعض صاحباتي فاحتشم قبل ان تنتبه الى ما كان فيه. ولو انها تأخرت عنا لحظة لكان يا راؤل قضي الأمر وانتهى كل شيء .

على أن هذا الفتى الوقح الذي حاول بمثل هذه المباغتة ان يتخذ له خليلة من زوجتك لن يدخل داري بعد هذا اليوم واني اعدك بذلك وعداً صادقا. ولكنني لا أقوى على الوعد بأن ما حصل اليوم لا يحصل غداً أو بعد غد لأن هذه الصاحبة قد لا ترسلها الاقدار مرة أخرى لتنتشلني

ان من واجبي ان اعترف لك بما صرت اليه من الضعف واني قد أكون بعد اليوم هدفا لأي رجل آخر في جرأة هذا الفتى . ان النار قد أخذت تشتعل في بيتك فاذا كان يهون عليك ان تمتد الى ما بقي منه فاستمر على الحياة التي انت فيها . ولعلي أكون مخطئة فتسرع الى اطفائها قبل ان تفوت الفرصة فتلتهم كل شيء . . .

جناية فى روسيا

نشرت مجلة أشهر قضايا العصر الفرنسية في عدد أغسطس سنة ١٩٠٤ هذا الدفاع البديع الذي تقدم به امام محكمة جنايات روسيا الاستاذ اندريفسكي دفاعا عن متهم بائس في حادثة قتل كانت وليدة جناية على الاخلاق :

« انني لن اطلب اليكم اليوم ان يكون للانسان الحق في قتل اخيه الانسان لأن مثل هذا الحق مناف لطبيعة العمران فيستحيل ان تقرره الشرائع ولكنني اطلب ان تقرروا هذا المبدأ وهو انه قد يكون هناك قاتل لا ينكر جرمه ولكنه يفلت مع ذلك من حكم القضاء وحكم العار

ولقد تمر على الضمير البشري فترة يشترك فيها ألم القاضي مع ألم المتهم وعندها يقوم العراك المنيف بين شريعة السماء وشريعة الناس ولكن القاضي يخرج من بين ذلك صائحا بأعلى صوته : نعم هنالك خطيئة ولكننا لا نحمل ضمائرنا تبعة ان هناك جرما .

في ربيع العام الماضي وقعت بخاركوف مأساة اليمة كانت ظروفها سببا في اثارة جو مشبع بالظنون والفضيحة لأن ماريشال شرف قسم أزيوم ذلك النبيل المثري انتيوش الكسندر وفتش بنتيشي قتل لاشتراكه في حادثة زنا

ولقد كان من العسير بادىء بدء أن يصدق الناس هذا الخبر نظراً لمركز القتيل حتى ان قاتله اوجين « رومانو فتش لسفتسكي » كان موضع السخط العام وهم يصيحون : ما هذا ؟ مثل هذا الفتى المعوج المدمن على الشراب والميسر المستغرق بالدين يجرأ على قتل مثل هذا النبيل الطاهر ؟

وبالرغم من ان القتل كان انتقاما من الزوج كانت آذانهم تأبى ان تسمع

هذا الصوت صائحين دائما : نعم . نعم . انه اراد ان يضع امرأته في احدى كفتي المساومة بعد ان اتى على ما كان يملك فهو لم يقتل الا لانه لم يوفق الى الجعل المعروض لطلاقها !

ولكن بالله كيف يمكن بعد ما سمعتموه هنا ان تعود الى اسماعكم هذه الخرافة التي نسجتها افواه العامة بعد ان هيأتها لمثل هذا الزعم الجائر نفس تدبيرات القتيل . من ذا الذي يصدق بعد ذلك ان لسفنتسكي كان يطمع في امواله او أنه كان يحاول ان يقتضي منه ثمن امرأته مع انها هي وابنتها كانتا من اعز نعم الدنيا عليه

واذا كان قد اعتاد فيما مضى أن لا يقترض من القتيل الا بسندات مالية لا شبهة فيها وانه سدد قيمتها كلها فكيف اذن يدور في رأسه مثل هذا الخاطر السيء الشائن الذي ما زالت ألسنتهم تلوكه

واذا كان أخيراً بحاجة الى الأقتراض من القتيل (صديقه) . . . فهل لم يكن مثل هذا السبب المزري كافيا لصرفه عنه الى غيره من المقرضين

ومن أغرب الامور ان يدهش أبو القتيل عندما بلغه نبأ قتله فيصيح : « أين صرف ولدي المقتصد المستقيم . . . ريعه السنوي وهو لا يقل عن (خمسين ألفا من الروبلات !)

ولكنها دهشة لن يكون لها أثر في نفوسهم لأننا نعلم أيضا ان ذلك المقتصد المستقيم . . . دفن معه يوم قتله كلما كتمته جوانحه من أسرار أخرى

وأغرب من هذا القول أيضا ان احاديث الطلاق لم تظهر الا في الوقت الذي نضبت فيه ثروة القاتل وأنه لما سدت من دونه ودون امرأته أسباب السعادة حقد على القتيل لأنه لم يجده سخيا للحد الذي كان يطلبه ثمناً لطلاقها

لا اراني بعد ذلك في حاجة الى الوقوف عند هذه التخرصات لاسيما اذا ذكرتم أن لسفتسكي لمازالت الغشاوة التي كانت على عينيه وسمع صوت قلبه يسأله : « من الذي أصبح يملك قلب امرأتك ؟ » لم يتردد لحظة في ان يطلب من القتيل ان يبارح داره فوراً

وقد يقولون ان هذا كان حيلة منه أيضا ليؤجج نار الحب في قلب بنتيش فيزيد في ذلك الثمن

ولكن اذا كان الأمر كذلك فما هو اذن الحد الذي تقف عنده مثل هذه النميمة ؟

على ان الموتى لا يملكون ان يدفعوا للاحياء شيئا وقد اصابه موكلي بيد ثابتة وهو يعلم حق العلم بما وراء عمله من ظلمات الخط التي ستقوم على حكمكم الأبدي .

من ثمان سنوات اقترن لسفتسكي (الضابط بالخيالة) بكاترين الجنفا وكان يحبها من كل قلبه مدى السنتين التي ظلت خطيبته فيهما وامها تحاول اقصاءه عنها وقد ظنته فتى لهو غير أهل لأي عمل ولكن الحب قرب بين العروسين فبارك ته

ولقد كان زواجهما سعيداً رزقا من بعده بسنتين طفلة لم تضاعف عواطف حبهما فحسب بل انها صانت أيضا كما ستراه تلك العلاقة الى آخر لحظة . بل ان مولدها عد أيضا فألا حسنا لأنه على أثره ظهر في هذه الحلقة ذلك الذي سموه صديق العائلة . . . وخليل الزوجة فيما بعد !

وكانت زوجة لسفتسكي في ذلك الحين من أجمل نساء خاركوف فلما وقعت عين بنتيش عليها (وهو القدير على صيد النساء) هام بها ولكنه ادرك

ما يربطها بزوجها من طاهر الحب فوطن نفسه على الصبر حتى يهيء له الزمن يوماً يكون عنده شريك زوجها فيها

ولا يفوتنا ان موكلي كان على ثقة من طهارتها فاطمأن عليها ولم تحدثه نفسه بمراقبتها وعاد الى حياة لهوه الأولى .

وقد كانت هذه الغفلة فرصة رأى بنتيش ان ينتهزها شيئاً فشيئاً بمثل خطوات الذئب ونعومتها لاسيما وان أفساد قلب زوجة كهذه اسهل في الواقع من افساد فتاة عذراء ولذلك لم يتطرق اليه اليأس فوضع لغرامه خطة بعيدة مأمونة وهكذا بدأ يكثر من التردد عليهما

ولقد كان رجلا ذكيا دقيق الأسلوب هادئاً قوي الارادة نخطا في هذا السبيل خطوات واسعة حتى أصبح أهل المنزل يعدونه صديقاً حميما

وعند ذلك وجد المجال سهلا لصرف قلبها عن زوجها فأخذ يظهر عندها بمظهر لماع خداع حتى كان في غيبة موكلي يتولى الدفاع عنه ويلتمس عندها له المعاذير لأن خير طريق في نظره هو أن يكيل لخصمه الثناء جزافا

ولقد نجحت هذه الخطة فأخذت تمسي بقدميها الى الحبائل التي نصبها لها ذلك الرجل القدير الرشيق اللطيف المحضر وهو يتوم نحوها بكل وسائل الرعاية في كثير من الأمور حتى كان اذا غاب زوجها يقضي كل زمنه معها متودداً متظاهراً بالتجرد عن الغرض

ولكنه وجد المقام يتطلب أكثر من هذا فأخذ يذكر لها (وكأنه خجل) ملاحتها وحسنها وهجر زوجها اياها وهو ساكن لا يظهر على وجهه أي اثر مريب .

وكان في بعض الأحيان يهمس في اذنها مثل ذلك حتى لا يسمع الحاضرون وهو مع ذلك يجد في وجودهم سياجا يدفع به عن نفسه الشكوك والظنون.

وكيف لا تنتبه مشاعرها بعد ذلك فاتمدت في نفسها شهوة الظهور له بمظهر يجملها في عينيه وهي بعيدة مع ذلك عن اي خاطر من خواطر الخطيئة.

ومن القواعد المأثورة ان المرأة لا ترفض غرام رجل حاذق صبور اذا وثقت من كتمانه . وقد وجدت هذه الصفات في بنتيش فلم تخش ان تهبه نفسها آمنة على سرها وقد كرر لها انه لن يخرج من شفتيه حتى يدفن معه فصدق

انظروا على أي اسلوب معقد دقيق طويل تمكن هذا الرجل من جر تلك الصالحة الطاهرة الى بؤرة الفساد

على انني ألفت نظركم هنا بوجه خاص الى نقطة من الاهمية بمكان لأننا نلمس بها سبب كل هذه المصائب

اذا كان بنتيش هو حقيقة ذلك الرجل الكامل كما صوروه لكم فاسمحوا لي أن اوجه الى ظله سلسلة من الاسئلة .

اسأله :

في ذلك الوقت الذي لم تكن سقطت عنده تلك الفتاة وأنت تدعو زوجها صديقك الحميم حتى ارتفع من بينكما حجاب التكليف قل لنا في ذلك الوقت كيف ساغ لك تحت ستار اخلاصك لزوجها ان تمد يدك اليها وأنت الطبيب المقتصد المستقيم ؟

اتريد ان اوازن بينك وبينه في تلك اللحظة وأنت تدفع بها عندها الى ظلمات الخطيئة ؟

ان لسفتسكي لم يكن أقل منك حبا لها وقد انتظر سنتين كاملتين كان فيها محل الاختبار الشديد وكثيرا ما ترددوا في قبول يده فلما باركوا لها وله ارتبط بها على ملأ من الناس . فلماذا لم تفعل انت ايضا مثل ذلك ؟

واذا كنت اقتنعت بأنها أخذت تحبك وان زوجها (صديقك) لن يقدر على اسعادها حتى هجرها وانصرف عنها وان زواجك انت بها يحقق تلك السعادة التي كنت تلوّح بها فهلا كان من السهل ان تكاشفه امرك في اسلوب تستشف من ورائه حقيقة ما يجول في نفسه نحوها حتى اذا كان حقيقة سلاها وتركها ونزل لك عنها او أن انصرافه كان فوق يده للاسباب التي زعزعت حياته فيعود الى صوابه ويصلح من أمر نفسه

ولكنك بدلا من هذا اعددت لها ولك غرفة خفية عن عيون الناس نصبت في وسطها سريراً زينته لها ثم أخذت ترفع عنها ثوبها بيد مرتجفة من نشوة الحب فاشبعت شهوتك المتقدة نارها وانت وهي آمنان

ولكن أتدرى ما معنى ذلك ؟

انك افسدت امرأة اجتمعت فيها زوجة وأم . ولقد قال سيدنا المسيح عليه السلام : لقد جعلني الله سيف انتقامه . ولكنك لم تسمع صوت هذا النذير في تلك اللحظة

ان بتيش كان يشعر بلذة السعادة في غرامه الجديد وان كانت لذة لم تقم الا على الشهوة الحيوانية ويدل على ذلك ما كانت تتضمنه رسائلها وقتئذ:

« اضمك واحبك — اضمك اضمك اضمك — كم يلذ لي ان اكون عند صدرك — احبك من رأسك الى قدمك — احبك الى حد الجنون — كيف احيا بغيرك »

بل ألفت نظركم الى هذه الرسالة الأخيرة لأهمية ما تضمنته :

« اكتب لك متظاهرة بالمطالعة ولكني ارتجف خوفا لأن زوجي يلعب الورق في الغرفة القريبة مني »

نعم انه لولا قتل بنتيش لما كان في الامكان ظهور كل هذه الخفايا ولا كان أتيح للسفتسكي ان يغسل شرفه من عار تلك العلاقة . أما الآن فقد اهتدينا الى تلك الحقيقة الأليمة النائية والى انهما كانا يجتهدان في اخفاء أثرها

ثم انكم تعلمون كيف كان من الصعب الحصول على أوراق كاترين وقد عني بنتيش بأخفائها . ولولا ان قاضي التحقيق خطر له الانتقال فوراً الى غرفة مكتبه لما كانت أمامكم الآن . ولقد طلب المفاتيح من الخادم فانكرها ولكنه حين رأى القاضي يسجل امتناعه في محضره ويعتبره مضللا للتحقيق اضطر الى تقديمها

وكذلك المكان المفروش الذي كان يجتمع بها فيه فقد اجتهد القتيل في اخفاء أمره عن الناس حتى أن القاضي بالرغم مما كان يشاع عنه لم يهتد اليه الا بعد شهرين من الحادثة

هذا هو بنتيش الذي عرف كيف يدبر خططه ويحكم أموره حتى أصبح خليلا لزوجة لسفتسكي

ولقد لبثا سنتين ثملين بخمرة ذلك السرور الشهواني بغير ان يرتاب في سلوكه أحد لأنه كان ماهراً في أسلوب تمتعه بغير ان يرى الناس فيه رجلا ذا وجهين

على انه بعد ان هيأ ذلك المكان وأعده لمواسم فجوره ظل كما كان صديق العائلة . . . وضيفها

وفوق ذلك كان اذا قصد خاركوف لقضاء اسبوع أو أكثر فيها نزل عندهما وتناول الطعام على مائدتهما فاذا حانت ساعة الراحة اهتم الخدم بأمره حتى انهم كانوا لا يمشون الا على أطراف اصابعهم

ومع ذلك فقد كانت هذه السعادة الموهومة محفوفة بشيء من الخطر لأن بنتيش وان كان رجلا مفكراً ثابتا الا انه ترك زمام نفسه مسترخيا وراء تلك العلاقة التي اخذت تزداد حتى صار اختلاطه بها كاختلاط الظفر باللحم وحتى اصبح بالرغم من احترازه تتغلب عواطفه احيانا عليه مما دعا الناس الى تناول شأنه معها بصوت مسموع

ولقد دبت في نفسه فوق ذلك ايضا غيرة شديدة عليها كانت تدفعه الى الانفراد بها وتملكها. ولذلك اخذ يبذر بينها وبين زوجها بذور التفريق وهو لا ينفك عن همزه ولمزه على مسمع من نفس رفاقه

ثم ان جنون الحب بين الزوجين كان قد انقضى عهده حتى رمى الناس لسفتسكي بأنه يخونها وان لم يتجاوز ذلك غير مرتين في مدى ست سنوات مع انه لم يقدم على ذلك أيضا الا لأن صديق العائلة . . . الكريم افسد قلبها عليه وكرّهها فيه حتى بلغ من أمر سلطانه معها ان باعد بين سريريهما بحجة مرضها ... !

ولكنها مع ذلك كانت دائما شمسه التي ترسل حرارتها الى حياته ولا اظنكم تعتقدون ان بنتيش مهما بلغ من شأنه يكون عندها خيرا منه

ومع هذا فأن تعلقه بها لم يظهر في ثوب حقيقته الا حين اصبح مهدداً بطلاقها

ومما يجب الفات نظركم اليه ان اسفتسكي بالرغم من ملازمة بنتيش

لمنزله ما كان يرد على خاطره ان يقدم على خيانته لأن كل شيء كان محكما الى حد ان الخدم أنفسهم ما كانوا يرتابون في شيء . وربما ساعد على ذلك أن لسفتسكي كان لا يتصور ان امرأته تدوس على أقدس علاقة أساسها الطهر والعفة

واذا كان بنتيش على شيء من الحسن والرشاقة وقوة الأسلوب فما كان ذلك في نظره بداعٍ الى انصرافها عنه اليه وهو رجل ليس له فؤاد ولذلك استبعد ما يسمعه من أفواه الناس عنه وعنها حتى انه لما ذهب الى البنك ليقطع بعض سندات بنتيش كان محل الاستغراب والدهشة

ولقد كان من وجوه الاعتراض على موكلي انه لم يحرك ساكنا عند ورود تلك الرسالة المجهولة الاسم ولكنه قرر لكم حقيقتها وانها كانت من عمله هو ليتكشف بها عند حماته شيئا من ذلك الذي كان يذاع

وفي الواقع فليس من مصلحة بنتيش أو أحد من اتباعه أن يذيع بمثل هذه الرسالة أمراً مكتوما فلم يكن غير لسفتسكي نفسه الذي حررها للغرض السالف

ولقد استمر الحال على ذلك الى شهر الصوم من السنة الماضية حيث بدأ لسفتسكي يشعر بانقباض شديد لأن تلك الاشاعات بلغت حداً غير محمود وهو يحسن الوفاق بينه وبين زوجته مهدداً وكأن شيئاً عزيزاً عليه طار بتقصيره من بين جنبيه

على ان اشاعات الناس أخذت تتقدم حتى قالوا أنه لا يستحق ان يكون زوجا لكازين وان الأولى له تركها لبنتيش لأنه أولى منه بها وأجدر وأنه يجب ان يطلقها .. وما كان اقساها كلمة

من تلك اللحظة تغيرت حاله حتى أنكره عارفوه فكان حزينا كئيبا كثير البكاء سريع التألم كأنما قد حانت الساعة التي يصبح عندها ملكا لسلسلة طويلة ثقيلة من الاحزان

وعندئذ بدأ الزوجان يتقابلان بوجوه عابسة مقطبة ثم تدرجا من ذلك الى التساب فالتضارب حيث انتهى الأمر بأن أمسكا عن التخاطب مع انهما كانا جسمين يدق فيهما قلب واحد ملأ فراغه الحب والحنو والأخلاص

ومع ذلك كان لا يزال من تلك السعادة الماضية أثر باق هو ابنتهما مارنسكا التي كانت تنعكس في قلبها النقي صورة أبويها متصلين برباط الحب كقديم الزمان ولذلك لم يجد لسفتسكي امامه سواها ينسيه ألم همومه فتعلق بها وهو يمد نحوها كفيه متوسلا كأنما تجمّع فيها كل رجائه في الحياة

ومن الغريب ان ذلك الرجل الماضي الذي لا يهتم حتى لأبسط امور حياته ظهرت عليه في تلك اللحظة بشائر الشعور والتفكير والحذر حتى رضخ الى حكم نفسه فأخذ يجادلها ويحاورها : هل انا جدير بأن اكون زوجها وهل تكون اسعد حظا لو انها تزوجت من غيري . وهل من حقي بعد ذلك الحال السيئة التي آلت اليه حياتها ان استبقيها ؟

ولكنه ما كان يخرج من هذه المناقشة بغير الشعور بوحشة العزلة وألم الانفراد ومرارة الصبر لأن تعلقه بامرأته كان شديداً حتى كادت صحته تتدهور لولا رياضة يومية مع ابنته كانت ترسل الى قلبه شيئاً من الحرارة وهو الى جانب تلك الطفلة البريئة الخالصة من ادران الخطيئة

على أن أعصاب [illegible] كانت تزداد توترا وهو متردد ذاهل . . .

واذا كان الشهود قد رووا ما سمعوه عن بنتيش بغير زيادة ولا نقص الا أن ما ذكره لهم لم يكن الا بناء على خطة وضعها وكتمها فلقد سأله بعضهم عن موعد الطلاق فقال لا أدري . . لأن اسفتسكي يغير كل يوم شروطه ..

ولكن ذلك الرجل الظريف . . . فاته ان يذكر عوضا لهذا الطلاق حين صاغ جوابه لهم في هـذا القالب المتعمد وأذن فلا حاجة الى الوقوف عند هذه النظرية الواهيةمن أن القتل كان يرجع سببه الى مثل تلك المساومة

وعلى ذلك فأن روبنستين صديق بنتيش قرر في شهادته أنه قبل الحادثة بأسبوعين ذكر بعض الرفاق أمام لسفتسكي ليلة ساهرة مضت كانوا قضوها معه ومع زوجته قبل أن يرتبط بنتيش فتنهد وقال ودموعه تجري على خديه: ليت ذلك الزمن يعود !

وقد قرر شهود آخرون ايضاً أن المتهم في فترة ذلك الصوم ما كان يقطع وقته بغير البكاء

اتراه كان ينتحب لأن ما عرضه عليه بنتيش من الأجر مقابل البعد من زوجته كان قليلا ! الا ترون معي الآن ان هذا الاستنتاج مضحك

ومع ذلك فان المتهم قبل وقوع الحادثة بثلاثة أيام ادرك أن الحالة تقضي بسؤال زوجته عما اذا كانت تحب بنتيش حقيقة

ولو أنها في مثل هذا الموقف كانت نشاطر الناس رأيهم في أمره من أنه لا يحبها وأنما يقصد جر الربح لنفسه على حسابها لما ترددت عن استنكار هذا السؤال ولقالت له مرة واحدة « انت لا تجهل انني أحبه فارجوك أن تصفي حسابك معه سريعا والا اضطررت أن اذهب انا اليه »

ولكنها لم تجرأ حتى على تخيل مثل هذا الجواب لانها وهي التي

اصبحت قلبا وقالبا في حيازة بنتيش من اكثر من سنتين ادركت للحال ما يخفيه صوت زوجها من المتاعب وما يبدو على عينيه المحمرتين من أثر البكاء والسهد فكذبت عليه قائلة : « انني فقط بدأت اشعر بالميل اليه »

ولقد كان هذا آخر شعاع من أشعة الأمل ملأ جوانب قلبه فرحا فرأى السعادة كل السعادة في أن قلبها لم يصبح ملك ذلك الرجل وأنه من السهل عليه بعد ذلك معالجة هذه الحالة الدقيقة معها . ولذلك لما وافت الساعة الثانية انطلق الى غرفة بنتيش وبعد أن أيقظه توسل اليه أن يبارح منزله الى الأبد فأجابه الى ما طلب ولكن دلائل الشهامة التي بدت على جوابه لم تكن الا دلائل تمثيلية

ولقد لامه موكلي على اعتياده ذكر حبه لها أمامه فقال : « حقيقة أن هذا غير لائق ولكن ماذا أعمل وأنا احبها ايضاً من اربع سنوات» وهكذا ظهر بمظهره الحقيقي

ولقد اراد المتهم أن يقنعه بان استرساله وراء شعور كهذا فجور وان هنالك من النساء ما يمكنه أن يقاسمهن العيش وهكذا لا يهدم بيتاً قائماً ولكنه بدلا من الاقتناع وتحقيق هذه السعادة المنزلية واحترامها افهمه أنه هو نفسه لا يحب امرأته وهو يجري من وقت لآخر خلف الراقصات والغواني

بل أنه عاد الى سؤال موكلي عما اذا كان لا يزال يحبها فلما لم يتغير جوابه تظاهر بتلك الشهامة الموهومة التي قدمناها مكتفيا بالعودة في الغد لتوديعهما

واذا كان لسفتسكي على أثر ذلك هدأت ثورته واطمأنت نفسه الا اننا نعلم مبلغ بهتان ذلك الرجل الذي لا يصبر على فراق كاترين ولا لحظة

واحدة . على أنه رأى مدام لسفنسكي تحاول كتمان حكمها في مثل هـذا الموقف وقد تكون تعمدت ذلك تاركة له هو مطلق التصرف

ولقد امتعض ايضاً حين ادرك ان هنالك عقبات جديدة قامت تعترض طريق لذاته لان حرصه وحرصها على تكتم ما بينهما حتى لا يعلم به موكلي أصبح غير كاف وقد زالت الغشاوة التي على عينيه الا انه كان مع ذلك كثير الثقة بخليلته وحسبه ان يسحرها بأساليبه حتى تكون له الى ما شاء الله

ولما عاد لسفنسكي الى منزله انهى الى زوجته بما وعده به بنتيش ولكنها لزمت الصمت فقطعت على الزوجية خط الرجعة الى هدوئها القديم ومع ذلك فلما أقبل الصباح جثا لسفنسكي عند قدميها والدموع تملأ عينيه وتوسل اليها أن تقيم على حبه واعدا أياها ان يكون عندما تريد يرعاها ويضاعف عنايته بها ويسعى الى تحقيق سعادتها . وعند ذلك تنبهت عواطف الشفقة في فؤادها فبكت واعدة أياه بنسيان خصمه وان كان في الحقيقة فوق مقدورها

ارأيتم الآن اي رجل هو ذلك المتهم الواقف بين ايديكم . ارأيتم في حياتكم زوجا يتوسل الى امرأته والى الرجل الذي يداعبها أن يضغطا على شعورهما قليلا حرصا على سلامة العائلة . كيف يكون مثل هـذا الرجل قديرا على البطش او كيف يكون للقسوة محل في قلب الجريح الرقيق . هذا هو الرجل الذي هبطت فوق رأسه السعاية والوشايات فدفعته الى اليأس والجنون

على ان بنتيش بعد ذلك بزمن قليل عاد فصعد مرة اخرى الى حماة موكلي على نية التفاهم معها . . . وعند ذلك تركه لسفنسكي عندها ومعهما زوجته ثم أسرع الى غرفته منتظرا ما يستقر عليه رأيهم . غير انه سمع حماته

تصيح فجأة : « جرب قليلا كيف تتغلب على عواطفك » مما يدل على انها هي وابنتها اعطياه مهلة يعالج نفسه فيها

وبعد لحظة صعد موكلي فلمح زوجته تنسل مع بنتيش الى مخدع بالمنزل وحماته عند الشرفة المطلة على الفناء

وكانت كاترين مستندة على ساعديها فوق المائدة وهي تبكي وكذلك كانت الدموع تترقرق من عيني ذلك الوحش ولعلها دموع الوداع يتبادلانها في تلك اللحظة الاخيرة

وعند ذلك لحق موكلي بحماته يرجوها ان تتدخل فيما بينهما وان تحول دون اجتماعهما فنصحته ان يقلع عن هذا الخاطر حتى لا تزيد في ثورتهما ولكنه تركها وأخذ يدور بخفة حول المخدع وأذناه تسترقان السمع وقلبه متدافع الدقات متلهفا على ما سيكون من حظه كالمتهم الذي يلصق اذنه بباب الغرفة التي تجري فيها مداولة قضاته

وكان حديثهما مستمراً ولكن بصوت غير مسموع الا انه سمع فجأة رنة قبلة حارة فلم يتمالك نفسه ومر امام الباب لكي يشعرا به ثم جلس في مواجهتهما فاذا بها جالسة كما كانت من قبل وهي لا تزال تبكي

ولو ان موكلي كان يحب زوجته حبا قائما على مجرد الشهوة وان غيرته عليها لم يكن الدافع اليها غير ثورة النفس البهيمية لكان انقضّ على بنتيش وخنقه عندما طرق اذنه صوت القبلة ولكنه ذكر ان ذلك الميل الذي بدأ يربطهما بعضهما ببعض ربما نشأ رغما منهما بخطائه حين اطلق العنان لحسن ظنه بهما حتى انه توسل اليهما في كبح جماح عواطفهما على ما تقدم . لذلك رأى نفسه مضطراً الى احتمال تلك المقابلة الاخيرة بقلب مجروح

ولم يشأ ان يكدر عليهما صفو ذلك الوداع الذي كان نتيجة طبيعية للحالة التي وقع فيها كل منهما مادام أيضاً أنه سيعقبها عودة المياه الى مجاريها بين زوجته وبينه فما الذي يطلب عند قلب من الحلم والطيبة بعد هذا ؟

على أن بنتيش بعد ان اجتاز الصالون ونزل لحق به اسفتسكي فأعلنه انه سيرحل الى مزرعته ويختفي ولكن على شريطة ان لا يقسو عليها أو يعذبها والا فانه لا يفلت من محاسبته

وعلى أثر هذا الحكم ... الموجز المنتفخ بالعظمة انصرف ولكن بعد ان تناول طعام الغداء مع الجميع

ومع ذلك فقد استرسل هذا الرجل في وقاحته اذ عاد يذكر أمام موكلي من العبارات ما هو خارج عن حد الأدب جارح . بل اتضح أيضاً انه لم يصح عزمه على البعد عن امرأته وأنه مع علمه بأن زوجها لن يمسها بأذى وأنه بالعكس يتودد اليها ويستجدي حنوها كان يتحرش به ويدفعه الى أساءتها ليجد من ذلك سبباً يعود به الى أخلاف وعده

ثم أليس من الغريب أن يضع هذا الرجل الفظ نفسه موضع القاضي منها فيهدده بمحاسبته اذا هو حدث نفسه بالاساءة اليها بدلاً من ان يخر عند قدميه يطلب عندهما العفو والمغفرة عن خيانته

ولقد كانت غيبة بنتيش سبباً في صلة ما انقطع بين الزوجين وعلى الأخص في اليوم التالي حيث كانت تبكي وهي تسأله اذا كان حقيقة لم يتنبه الى ميلها لبنتيش ثم تقول له أنها اصبحت في اسوأ حال وانه لو تركها الى نفسها ربما عمدت الى الانتحار . ولذلك كان يطيب خاطرها وهو يرسم أمامها في الهواء اشارة الصليب مبتهلاً الى الله ان يصرف خواطرها الى الطريق السوي

وفي الواقع ان حالة هذه المرأة كانت لا تزال قريبة من الخطر وهي تشعر أنها ما زالت تحت تأثير ذلك الشيطان وانه لم يزل يجري في دمها سم قبلاته وان ولعها به لم يزل سلطانه قويا ولكنها مع هذا ايضاً كانت تشعر بانعطاف زوجها نحوها ورقته معها وانها قد لا تجد لها شريكا خيرا منه في حياتها وانه سيعمل دائماً على مرضاتها وأسعادها غير خاف عليها أيضاً أن بنتيش لم يكن غير غاصب نخور محب لنفسه ليس له قلب ولا في جوانحه رحمة وهكذا تشعر بمرير الألم وتتردد في السبيل الذي تتبعه .

ولما عاد لسفتسكي ساعة الغداء ولم يجد خصمه طار قلبه من الفرح ولكن « برج » صديقة زوجته اسرّت اليه انه لايزال بالمدينة وأنه عند الساعة السابعة من المساء سيكون عند حماته حتى صاح وهو على أشد حالات الانفعال : متى نخلص من وجه هذا الرجل

ولقد صح ما روته له برج فان بنتيش في تلك الساعة التي ذكرتها كان عند حماته وهو يوجه الى ابنتها نظراته من طرف خفي حتى ان لسفتسكي اوصى برج بمراقبتهما لاشتغاله بمداعبة ابنته . ولكنه مع ذلك لم يتحمل مثل هذا المشهد ولم يقو على ضبط نفسه فاسرع الى غرفة مكتبه وبعد أن أشعل الشموع دعا بنتيش اليه ليتفاهم معه للمرة الأخيرة

ولقد طلب منه ان يغادر منزله في الحال وان لا يحدث نفسه بالعودة اليه بعد ذلك ولكنه هذه المرة كشّر له عن نابه وصرح له بما فهم منه أنه لن يتنازل عن هذه المرأة وأن كان لا يحبها بدعوى أنه يحرص على حمايتها منه . . وانه ما صبر الى تلك اللحظة الا ليحصل على طلاقها ولو بذل في

ذلك كل ماله . وعندئذ صاح موكلي في وجهه : كيف تجرأ ايها الرجل على عرض مثل ذلك علي ؟

اما هو فعاد الى نغمته القديمة من ان تعلقه بالراقصات اكبر دليل على الزنا وايسر سبيل الى الطلاق فصرخ فيه « اخرج من منزلي »

ومن أغرب الامور أنه لم يستح فقال انني لست بمنزلك وانما بمنزل حماتك ولكنه لمح ما كان فيه موكلي من ثوران النفس واشتداد الاعصاب فانسحب على انه لا يعود ولكن على ذلك الشرط السالف من احسان معاملتها والتصريح لها بالسفر لمعالجة نفسها بحيث اذا بلغه فيما بعد غير ذلك فلن يفر من قصاصه وقد يقتله

ولكنه تهديد كاذب في الواقع لأن مثل بنتيش الغني النبيل لايورط نفسه في مثل هذا الجرم

واذا كان موكلي قال له : « اذا كنت تظن انك تخيفني فأنت اذن تجهلني » فاسمعوا ما اجابه به وقد تهيأ للانصراف : « اذن أنت تجهل ما هنالك ايضاً حتى ظننت انني امتنع عن العودة لهذا البيت »

قال ذلك واختفى ولسفتسكي ذاهل باهت يمزق احشاءه الألم فما معنى ذلك . اتراه أخذ الأمان الطويل عند زوجته او أنه هو وهي أصبحا حديث الناس فلم يعد سبيل الى تدارك الأمر ام أن بنتيش كاذب

من الذي يسعه أن يضع حدا لكل هذه الاحزان القاتلة . ومتى يفارق ذلك الوقح هذا البيت فيعود الى سكوته الماضي .

ومع ذلك فبالرغم من اضطراب لسفتسكي حين صعد الى حماته على

رواية انّا برج لم يكن عنده أية نية للقتل حتى انه لم يعر بغرفة نوم امرأته وفيها مسدسه .

ولـكنه رأى بنتيش لا يزال كما كان يسدي النصح اليها حتى ضاق صدره وفرغ اصطباره . وعندئذ خرج الى الشرفة غير أن برج هرولت اليه قائلة ان بنتابش ذكر لزوجته انك جبان لا تحسن غير البكاء

ولقد كانت هذه الأهانة حثالة الكأس التي تجرعها فغاب عن صوابه ولم يتنبه الاعلى صوت المسدس الذي اطلقته يده وهكذا تلاشت نية القتل تحت جلباب ذلك الدخان الذي انتشر على اثر تلك الطلقة

ان مثل هذا يحصل لـكل منا ايضا حين ترزح نفوسنا تحت سلطان المؤثرات وهي تصب عليها آخر نقطة من سمومها

انكم تحسون قوة تلك الزوبعة النفسية حتى ان لسفتسكي لم يشعر الا بشيء واحد وهو ان الحق اصبح ليس له وجود فاندفعت يده لا تعرف ماذا حركها وما حركها غير حكم السماء الذي له وحده السلطان على كل شيء

هكذا نطقت الأقدار بحكمها في بيت الخطيئة وكم كان رائعاً مهيبا ذلك الحكم العادل الذي انطق المتهمين الثلاثة بعد صمتهم فصاح بنتيش الي بطبيب وكان اول ما ان يقول سامحني يالسفنسكي وقالت المرأة انني احبك يازوجي كأنما استيقظت مرة واحدة من حلم مزعج كان يعذبها اما الزوج فصاح ابنتي [illegible] لم تمس احدا ولم تخدع أحداً

وهكذا اتجهت نفس كل منهم الى ماهو عزيز لديها

والآن وقد انتهيت فلم يبق الا كلمة واحدة اقولها وهو أن الاحياء

والموتى في حوادث القتل لا يفرون من حكم الأقدار

***

ربما كان مادونه مارسيل بريفو الكاتب الفرنسي الشهير في رسالتي : « النار وارحمني » خير صورة ناطقة بما يكون من وراء الاختلاط من الخطر وقد يظن القاريء انه ذهب فيهما الى ابعد من الحقيقة ولكن الذي يعرف مبلغ انتشار العلم والتهذيب في تلك الأصقاع وسهولة الاتصال فيها بين الجنسين لا يستقر على مثل هذا الظن

على ان ماصوّره لنا لم يخرج عن سلطان الطبيعة البشرية فأي امرأة كائنة من كانت تجد نفسها امام فتى جميل وتحت تأثير نظرات جذابة ساحرة لا يهن عزمها ولا تنحل قواها فيفلت سلاح حيائها من يدها

انه اراد ان ينبه مواطنيه في قطعة (ارحمني) الى ان الحياء مع الجهل خير مائة مرة من التربية في غير حياء ولولا ذلك لما وقفت صاحبة تلك الرسالة عند الحد الذي تصون به شرف طهارتها وتظل عنده الزوجة الأمينة الوفية لزوجها وهي جاهلة يمكن التاثير عليها وفقيرة من السهل غوايتها ولكن الحياء كان رأس مالها وسلاحها وكل شيء فكان العلم مكان الجهل والغنى عند الحاجة والسيف الماضي الساهر على طهارتها في تلك اللحظة التي كاد ينهار عندها صرح عفافها

اما ماصوره لنا في رسالة (النار) فهو خير مايقدر على اخراجه للناس قلم كاتب حكيم بصير يبكي على الصون ويستنهض ما مات من النفوس حتى لا تذهب البقية الباقية من مكارم الأخلاق :

« لقد اشتعلت النار في بيتك فاسرع الى اطفائها قبل ان تلتهم كل شيء »

نعم انه في هاتين الرسالتين اراد ان يقف بنا عند مضاء هذين السلاحين سلاح الحياء ولو مع الجهل في الرسالة الاولى وسلاح التربية مع النبل في الرسالة الثانية

على أننا نرى أيضاً فيما صور كيف كانت هاتان الزوجتان الطاهرتان مقدرتين موقفهما حائرتين مترددتين ولكن صريحتين فاسرعت الاولى توقف ذلك الصديق الخائن عند حده واسرعت الثانية تنبه زوجها الى تلك الشرارة التي توشك ان تصبح ناراً

وربما كان الدفاع الأخير خير لسان للواقع يخطب في الناس لعله يصادف اسماع اخلاقهم وتزحزح يده طرف اللثام عن الاساليب الشيطانية التي يتذرع بها بعض الساقطين الجريئين في العبث بعفة السيدات من طريق افساد اخلاقهن بأفساد اخلاق ازواجهن . وهكذا وقفنا بالرسالتين عند حد تدارك الاخطار المؤذنة بالوقوع ولمسناها بالفعل عند هذا الدفاع مما فيه عبرة وعظة .

عدوى الازياء

(سبب هذه العدوى. ميزان الأزياء . مضار بعض الأزياء في الصحة وفي الاخلاق. مكاتب التخدم. مستحدثات في اللغة . مزاحمة البغيات . كلمة للامام مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده. الوجد الكاذب)

كما ان الافكار يؤثر بعضها في بعض على ماسبق في الباب السالف فان من الأشياء ما يؤثر أيضاً في النفوس

ومحل هذا التأثير على كل حال خلو المرأة من العمل والمال دائماً مادة الشهوات فتعمد الى سد هذا الفراغ على أي وجه من الوجوه وأقربها الزينة وهي الشغل الشاغل للنساء من قديم حتى في البلاد المتوحشة التي يتحمل نساؤها ألم الوشم وخزم الآذان والأنف والشفة لا لشيء غير مجرد الظهور لأن السيدات فطرت نفوسهن على سماع الناس يتمدحون بهندامهن ويثنون على ملاحتهن والغواني يغرهن الثناء وهكذا أصبحن جميعاً يتزاحمن على الازياء كما يتزاحمن على النور لا لكي يرين اكثر ولكن لكي يظهرن اكثر

ولو أن الازياء تقف عند الحد الذي يسمح به العقل ويتفق مع الاحتشام والمصلحة لما عابها أحد لانه لا يوجد انسان يكره ان تلبس الفتاة والسيدة ثوباً مع احتشامه يبين عن محاسنها ولا يؤثر في صحتها وراحة أعضائها ولكن الحاصل غير ذلك فما رأينا سيدة تفكر في كل زي جديد تزنه بميزان العقل والحكمة والاقتصاد . تقبل عليه اقبال الجائع النهم على الطعام وان لم يكن جيداً فيصيبها المرض والافلاس من جراء اسرافها كما تصيب معدته التخمة بسبب نهمه

ومن الغريب أن كل الازياء التي نراها ضارة في الغالب بالصحة والخلق

ومع ذلك تشعر السيدة بأنها اسيرة حكمها فلا تجد في نفسها قوة على الافلات منها

وهل ينكر احد مضار الاصباغ والمساحيق التي تطرحها كل يوم على وجهها ويديها وقد لاتخلو من سموم تؤذي بشرتها او تنفذ من مسامها الى دمها أو تسد تلك المسام فتحول بينها وبين التنفس من هذا الطريق

ومن ينكر مضار المشد يضغط على خصرها وان شد على أمعائها وألمها بصرف النظر عن القراقير التي تصيب السيدات وليس كل هذا الا اثرا من آثاره

وقد تتحمل الأذى بسبب ضيق حذائها والتحجر الذي يصيب راحة قدميها واطراف اصابعها

ثم أنها ترغب عن الثوب الواسع الى الثوب الضيق لانه لالتصاقه بجسمها تظهر منه اعطافها الناعمة اللينة وحدود جسمها وما يعترضها من النتوء والتجويف والانعراج

وقد عز عليها أيضا ان لاتقع العيون على جمال ساقيها فأخذت تقصر من ثوبها وان لاتظهر محاسن ساعديها فرفعت عنهما عبء الاكمام حتى قال بعض الظرفاء ان ثوب السيدة كان من عهد قريب طويلا ولكنه اخذ يقصر سنة بعد سنة حتى اصبح طرفه الآن قريبا من فخذيها ثم طلب الى الله ان يعيش سنة اخرى . . .

هكذا هان على السيدة المصرية ان تعاني الالم في سبيل التأنق وان تظهر سافرة تحت نقابها الشفيف عارية السواعد والاكتاف والصدر حتى لاتحول بين ملاحتها وبين الأنظار ومادرت انها في الحالة الأولى تهيء نفسها لفواتك

الأمراض ونسيت في الثانية ان مثل هـذا الثوب تتبخر من فتحاته العفة كما قال فولتير

على أن تطور الازياء السريع يدفعها سلطانه الى التخلي عنها واقتناء غيرها من الازياء المستحدثة . ومثل هذا يقال أيضا في كل مابقي من وسائل الزينة وعلى الأخص الحلي تدفع فيه ثمنا مقابل ذهبه وثمنا مقابل صناعته ولكنها اذا باعته باعته على انه ذهب لاقيمة لصياغته التي ابطلها حكم التطور

وفي هذا التنقل المستمر اسراف لا يقف عند حد وقد ينتهي بالثروة الى الزوال

واذا كان هذا حال السيدة الميسورة فماذا يكون من امر الطبقات المتوسطة او الدنيا وشهوة التقليد والرضوخ لحكم الازياء آخذان برقاب الجميع

ان مثل هـذا الغرام المتقد ليدفع المرأة الى الحصول على المال من أي سبيل لكي تسد فراغ هذه الشهوة التي تنتقل اكثر من تنقل الفصول فتضطر الى السرقة او الى غيرها من السبل الخانقة للعفاف

لهذا كله انتشر الفساد .

الوجد الكاذب

سيدي المحترم

لولا اضطراري الى السفر لأتعهد مزارعي لما فارقتك وقد ملكني حبك وسحرني اخلاصك في نصحك بسبب انصرافي عن الزواج حرصا على شبابي وعلى مستقبلي

ولقد حاولت كثيرا أن ابتعد عن المناقشة معك في مسلكي ولكنني اليوم

اذكر لك طرفا من الاسباب التي دفعتني اليه

ربما لم يخف عليك ما اصبح عليه نساؤنا وفتياتنا في هذا العصر الجديد وقد ارخى لهن أولياءهن عنان الحرية فجمحت بهن

ان انصرافهن الى الحوانيت لقضاء حاجاتهن بأنفسهن وخروجهن للنزهة والرياضة كل هذا امر غير مكروه لذاته ولكن الذي يتعقب حركاتهن لا يلبث أن يرجع متقززا شاكيا يندب الحرية ويرثي الحياء في هذه البذرة الغالية التي اذا لم تسق من الآن بالتربية والأدب الصحيح اثمرت في المستقبل خرابا وندما

الم ترهن في القاهرة كيف يخرجن زرافات كأسراب الظباء تفلتت من البادية او كأنهن فرقة من فرق المطافيء ولكن لتزيد النار اشتعالا

ومما زاد الطين بلة ان أغلب المومس وبنات الهوى لما رأين تأثير الازياء لهن في النفوس صرن يخرجن هن ايضا في مثلها فاصبحت مشاعا بين الحرائر وغير الحرائر والتبس الأمر وتسربت الى اذهان الناس الشكوك . ولعلك لمست الآن سبب بعدي عن الزواج مع انه نصف الدين .

ومن الغريب ان هذا الداء سرى حتى الى الطبقات الأخيرة من الأمة.

وهذه حادثة صغيرة وقعت لي قبل سفري تتبين منها انني لم اخطيء في مسلكي:

قبل أن ابلغ ميدان الأزهار لمحت على بعد عشرين مترا مني امرأة معتدلة القد وافرة الجسم حسنة الزي تمشي الهوينا وهي كلما خطت خطوة اهتزت معاطفها ورأسها يتمايل يمينا وشمالا كبندول معكوس يحركها النسيم والزهو ويداها مختفيتان في قفاز ناصع البياض تتدلى من احداهما حقيبة طويلة السلسلة .

هزني هذا الشكل الأنيق فدق قلبي وتحركت نفسي وأسرعت لأصل اليها واملأ عيني من حسنها ولكنني خفت ألسنة المارة فعدت الى سرعتي الأولى وانا لا أزال بعيدا عنها

وأخيراً عرجت الى شارع آخر قاطع للشارع الذي اسلكه فكانت فرصة لم أفلتها حيث أسرعت من جديد لألحق بها وانا مضطرب البال مفكك الخاطر أحدث نفسي بأنني اصبحت على باب كنز من كنوز الحسن والملاحة حتى اذا صرت الى جانبها وانا افتل شاربي وأحملق بعيني أسقط في يدي ودارت رأسي لأني لما وقعت عيني على وجهها ... اسودّت الدنيا في عيني ![1]



(١) لانه وجدها جارية سوداء

المومس

(لعبة المدنية . الأغراب . لائحة العاهرات . القبقاب . الجندي الأسترالي نوسيرييس ياحبيبي .)

من ذا الذي ينكر أن البغيّ مخلوق شقي

انها لعبة خلقتها اهواء المدنية لمجرد اللهو وصورة من صور اللذة البشرية قضت بها شهوة الاجتماع حتى بلغ من أمرها وأمر أمثالها أن أعدت للبغيات مناطق خاصة ذات مسميات مختلفة اعجبني منها ماوضع لاحداها بأسوان وهو « الأغراب» .

نعم أن اؤلئك البائسات أغراب حتى في بلدهن . اختطفهن من حجر الفضيلة ناموس العصر الجديد ثم أحاطهن بسور منيع من القوانين ضيق الخناق على حريتهن حتى في نفس بيوتهن فلا يصح أن يظهرن في النوافذ أو يقفن على الابواب او يخطرن في الطرقات لكي لا يكن سببا في تحريض الناس على الفساد .

أنني لا أرى معنى لهذا التضييق الشديد مع أغفال أمر الحجاب لأن أغلب السيدات يمرحن في طرقات المدينة على ما وصفناه من التبرج المحرك للنفوس المثير للشهوة فلماذا لا يكون لهن نصيب من مثل هذا التضييق ما دام ان الغرض الحيلولة بين الفساد و بين الناس حتى حسبنا ان الحجاب رفع عن هؤلاء ليضرب على ذلك النفر القليل البائس ؟

لا أود ان اقول مع سولون ان الشرائع كنسيج العنكبوت تصطاد الضعيف و يفلت منها القوي لأن في وسع الحكومات حماية اولئك الشقيات

بنظُم وافية شديدة تكفل صون العفاف كأن تسد حاجة الفقيرات من طريق العمل الشريف وتعلم الجاهلات وتفرض عقوبات مختلفة على من لا يتزوج عند سن معينة وتضرب على يد الازواج الذين يسيئون الى زوجاتهم بغير سبب

ومن يدري أن من بين المومس من هن أرق من النور وأنضر من الزهور يصح ان تكمل بالزواج بهن سعادة البيت

ومن يدري انهن لم ينغمسن في ذلك الفساد الا لسبب من تلكم الاسباب البغي كالزهرة الا ان اكمامها تنفتح في الليل عند فجر الشموع .

هي عروس الليل تملأ العيون نوراً ونشوة حتى اذا ضحك الصباح هالك ما فعلت بوجهها الصبوح يد السهر واللهو والشراب

وترى ذبولها فتحسب أن الطبيعة اقسمت الا ان تتقاضى من صحتها بالنهار ربما مضاعفاً جزاء ما تلقيه عليها من مظاهر الانس الكاذب بالليل .

ثم ماذا تكون خاتمة هذا المطاف ؟

الفقر في آخر حياتها وليس هنالك مشهد أشد تأثيراً من منظر الرذيلة في أيام شيخوختها

أو الموت العاجل الذي لا يصبر على حياة مضطربة مشرّدة كحياتها فتذهب من هذا العالم الذي ظلمها غير مبكي عليها

* * *

أردت ذات يوم من ايام الحرب العامة أن أودع صديقاً مسافراً فاصطحبت معي الى المحطة احد رفاقي ثم أخذنا نتمشى حتى اذا دق الجرس هرولنا الى الافريز المتوسط الذي يصل بنا الى القطار والناس يتدافعون في لغط وهرج شديدين الا انني طرق سمعي صوت غريب متوازن (طريق

طراق) له وقع سنابك الخيل فأخذت أدور بعيني من حولي فلا اهتدي الى مصدر هذا الصوت وهو مع ذلك تقترب رناته المتعاقبة مني .

ولقد بلغنا اخيراً عربة الدرجة الثانية فوقفت بعيداً وارتكزت الى مسند المزلقان الذي هناك فوقع نظري على بغي انتعلت حذاء خشبياً والى يمينها جندي استرالي يبلغ الخمسين من العمر انتهب الشيب نصف رأسه وهو يحمل فوق ظهره رزمة ضخمة حوت متاعه .

وكان بيني وبينهما نحو ثلاثة امتار وهما عند آخر عربات الدرجة الثالثة حيث صعد الجندي اليها وبعد ان وضع عنه حمله أطل من النافذة والبغي أمامه على الافريز وعند ذلك أخذ يخاطبها بلسانه الذي تجهله فتقتصر على الرد عليه بهاتين الكلمتين : « نوسير ييس ياحبيبي »

أما صديقي فقد استهجن استغراقي في النظر اليها قائلا انك تضيع زمنك في منظر عادي كهذا فهل لم تر أبداً جندياً الى جانب بغي .

قلت بلى . ولكني اليوم أراها بعين اخرى ملؤها الحسرة والدمع لأن اهتمام هذه الفتاة بهذا الجندي وتوديعها أياه لم يكن الا لأنها قضت معه ليلة الامس وسحابة اليوم

قال صديقي وأي شيء غريب في ذلك فقلت أن هذا الجندي قائم الآن على ما اظن الى احد ميادين القتال وهو يجهل ما تخبأ له في صدر الغيب من عطب او سلامة وقد جرت العادة عند كل جندي مثله في ظروف خطيرة كهذه ان يترك لنفسه العنان وأن يزودها لآخر لحظة بشيء من مجالي السرور والانس .

كذلك هذا الجندي البائس لم يشأ قبل أن اسلم نفسه لكف الاقدار

العابسة خيراً من أن تحسو نفسه في تلك الليلة أقصى ما يمكنها من كأس الحب وان يقضي مع هذه الفتاة ليلة سكر ولهو تنسيه همومه وتشجعه على استقبال هول الغد الذي ينتظره

نعم أن من الساعات ما تضم دقائقها المتقاربة مسرات بعيدة لماض أليم لا تمحو مرارته الا ليلة أنس كتلك التي قضاها معها

وبينما نحن كذلك كان الجندي ينظر اليها بعينين ملؤهما الرضى والحنان والاكبار والمسكينة ترسل ضحكا عاليا مكررة : « نوميرياس يا حبيبي »

وعند ذلك صاح صديقي أن هذا الجندي مجنون لاحتفائه بأمر بغي كهذه ساقطة فقلت نعم أنها بغي ولكننا نحن الذين أسقطناها . احسبتها ليس لها كنفسك نفس تشعر وتتألم . انها ما اعطت قلبها لهذا الرجل الغريب عنها في تلك الليلة ولكنها باعته له يوماً وقد يكون الدافع لها الى اختيار هذا السبيل الجوع القاسي الذي لا يرحم فانظر كيف تمثل الحاجة بالفتاة الطاهرة. ظلمتها قسوة الاجتماع ونحن ايضاً ساعدناه على ظلمها اذ لم نأخذ بيدها ونتشلها فلم يحال اخيرا بيننا وبين العطف عليها ؟

تربية الاخلاق

(الطفل عجينة تأخذ شكل قالبها . تأثير الدين في تربية الطفل . نصيب الدين في المدارس . الاقتصاد)

تتعهد الأم طفلها الى السنة السادسة والسابعة من عمره ثم ينتقل بعد ذلك عبء الواجب عنها الى كاهل المدرسة .

فالفترة التي بين مولده وبين تلك السنة فترة جديرة بالالتفات لأن الطفل في أول نشأته كالعجينة اللينة تأخذ شكل القالب الذي تصب فيه فاذا كان القالب مشوهاً خرجت تلك العجينة مشوهة

على ان الطفل في أول سنيه من اكبر المقلدين فهو يتعلم لغة أبويه ويعرف معنى الحركات ويميز بين النافع والضار ولكن اثر هذا التقليد يتأصل فيه مادام كالعجينة والعود اللين متى يبس استقر عند الشكل الذي أخذه

ولا ينكر احد أن خير طريق لاشرابه محاسن الاخلاق هو الدين لسببين اولهما أن الطفل الصغير أخوف الناس يتأثر لأقل شيء حتى اننا كثيراً ما نلوم الأبوين اللذين يدخلان الى ذهن طفلهما صور العفاريت والمردة فيشب جباناً . فلماذا لا يدخلان اليه بدلا من ذلك ثواب الله وعقابه ويذكران له دائماً ما للصالحين من نعيم وجنته وما للطالحين من عذاب ونار فيكون له من ذلك متى شب خير ذخر من ذخائر الاخلاق

وثانيهما ان للعقائد قوة سريعة التأثير متى حلت قلب الطفل اختلطت بنفسه اختلاطاً يجعل من الصعب نزعها حتى أن الانسان اذا حاول أن يحلل

أي مذهب من المذاهب ليكتشف أصوله وعلله في خلال الزمن الذي يستغرقه استرساله في هذا البحث يكون هذا المذهب قد حل من نفسه محلا مكيناً

لهذا كان من الواجب ان يكون الأبوان على جانب من الصلاح وكرم الأخلاق حتى يمكنهما في الفترة التي ذكرناها أن يهيئا طفلهما لمحاسن الأخلاق وأن تعني مدارس البنين والبنات بعد ذلك باستكمالها وتمكينها

أقول ذلك لأني أجد كل مدارسنا مهملة هذا الطريق السوي . نعم أن من بين موادها الدين ولكن الأسلوب المتبع فيه أسلوب عقيم لأنه غير واف وغير عملي

ولقد علمت من أحد أولادي أن المقرر لتعليم أصول الدين والتهذيب حصتان فقط في الاسبوع وهو شيء قليل جداً فكان من الواجب أن تعلم هذه الاصول للتلاميذ يومياً اسوة بغيرها من باقي المواد ولقد قال أيضاً أن هاتين الحصتين تشغلان أحياناً بمواد أخرى كاللغة العربية وسواها

ومع ذلك فان تعليم هذه المادة في حكم الاختياري ما دام التلميذ لا يمتحن فيها ولا يكون لها أثر في نجاحه عند نقله من سنة لأخرى . وفي ذلك من الخطر ما يدفن هذه المادة دفناً كما حصل للغة التركية واللغة الافرنسية وما كانتا في آخر عهدهما الا اختياريتين

على اني أطمع أيضاً في تلقين هذه الاصول بطريقة عملية باجبار التلاميذ على الوضوء والصلاة في أوقاتها تحت نظر المعلمين أنفسهم وما كانت الصلاة الا كسائر أنواع الرياضات البدنية التي يحرص نظام المدارس عليها كل الحرص . واذا كان من بين التلاميذ آخرون من ملل أخرى فهذا

لا يمنع من الزامهم باتباع أصول دينهم أيضاً والعمل بها وفي ذلك مزية ايجاد الالفة بين قلوب الجميع وجعلهم يعتادون من الصغر على ان يحترم كل منهم دين قرينه (١)

بذا هذا لا يتخرج الطلبة من المدارس الأولية الا وقد رسخت في نفوسهم أصول الدين وثمراته والأديان كلها تهدي الى مكارم الأخلاق

اما في المدارس الثانوية فمع ملاحظة الطلبة في تأدية فروضهم اليومية توضع لهم كتب في التهذيب مسهبة مع اسهولة على مثال كتب الاخلاق التي تدرس في البلاد الغربية لان المصلحين في تلك الاصقاع اهتموا لذلك اهتماماً يدل عليه كثرة الكتب التي من هذا النوع

وليس غرضي من التوسع الا أن يفيض المؤلفون في الاسلوب الذي يتبعونه عند ذكر الحكم وتحليلها وضرب الأمثال عليها ورد الشبه الموجهة اليها حتى تظهر للطالب في ثوب شفاف انيق يأخذ بلبه ويتمنه وما أحوجنا الى الفهم من طريق الاقناع

---

(١) راجع الفصل الثاني من سر تطور الأمم للدكتور جوستاف لبون تعريب فقيد العلم احمد فتحي زغلول باشا في أن الدين أسرع مؤثر فى الاخلاق.

للدين شأن كبير فى سياسة الامم لانه هو العامل الوحيد سريع التأثير فى اخلاقها

وتأسيس اكبر الممالك التي أدهشت العالم كان في عصر تدينها . كذلك اتحدت بعض قبائل العرب بفكرة محمد (صلعم) فاستطاعوا قهر امم كانت لا تعرف منهم حتى الاسماء وشادوا تلك الدولة الكبرى. وترجع السعادة الى أحوال النفس اكثر مما ترجع الى الاحوال الخارجة عنها

هذه كلمة عن الشيب أذكر انني قرأتها في احدى تلك الكتب القيمة تعد خير نموذج لذلك الاسلوب الذي اتمنى اتباعه فقد أنحى كاتبها على الكتاب والشعراء الذين اعتادوا أن يشبهوا شعرات المشيب بخيوط الاكفان فيدخلون الرعب في قلوب الشيوخ حتى اذا رأى أحدهم بياضاً في لمته استولى عليه الجزع وتملكه الحزن وأسرع اليه ينتزعه او يخفيه وهو انما يخدع نفسه قبل أن يخدع الناس . واذا رأى الشيخ لفيفاً من الفتيان انقبض صدره وأخذ يبتعد عنهم حتى لا يتحسر على ماذهب من عمره وحتى لا يكدر صفوهم عليهم مع أنه لا يزال له في هذه الحياة انفاس معدودة من حقه ان يستوفيها ويستمتع بها لا أن ينظر في كل ساعة الى المرآة لان في ذلك انتحاراً بطيئاً شريكه فيه تلك المرآة

ثم ان الدين يمقت خلة الاسراف ويحض على الاقتصاد ولكني أرى المدارس لا تغرسه في نفوس التلاميذ من صغرهم حتى يشبوا عليه

نعم ان هنالك نظاما لذلك بطريق الصاق طوابع البريد على دفاتر خاصة ولكن لا بطريق الزامي ولو بحسب مقدرة كل طالب

ان اقل ما يترتب على الاقتصاد ان التلاميذ في حياتهم العملية يجدون فيه خير سلاح يشرعونه في وجه الازياء وغيرها من وسائل الانفاق الضارة والاعتياد على الاقتصاد اعتياد على حسن التقدير والتصريف فيولد فيهم حب النظام والترتيب اللذين هما أساس النجاح في كل عمل من الأعمال بل أنه يخلق فيهم أيضا ارادة وعزما فتتولد فيهم ملكة القوة على ضبط نفوسهم وعدم متابعة هواهم وما كان المبذرون الا اخوان الشياطين .

كتب الديانة واصول التهذيب

الحدث الاصغر والاكبر . الادلة الفقهية . الادلة المأخوذة من ظواهر الكون

أمثلة على تلك الظواهر . طريقة التعميم

وقع في يدي كتاب من هذه الكتب لاحظت أن بالحاشية التي في آخر الصحيفة السابعة منه : « (١) الحدث الاصغر هو كل ما ينقض الوضوء وأما الحدث الاكبر فهو ما أوجب الغسل كنزول المني والجماع الخ » وهذا الكتاب من الكتب التي تدرس لاطفال المدارس الابتدائية فمتى كان لازما أن تتفتح أذهان هؤلاء الصغار الذين لم يبلغوا سن الحلم الى مثل هاتين الكلمتين الأخيرتين وماذا يكون موقف المعلم مع التلميذ لو أنه سأله عن معناهما مع أنه كان بوسعه أن يجمل في هذا الموقف كما فعل عند ما تناول الكلام على الحدث الاصغر . بل لماذا لما ذكر هذا الشق الآخر اقتصر عنده على أنه كل ما ينقض الوضوء ولم يتبع هذه الطريقة في الشق الثاني

فاذا كان قد رأى أن من عدم اللياقة ذكر البول والفسو وما فوقه فهل كان من اللياقة أن ينتقل الى ماهو أشد من ذلك خطرا فيذكره مفصلا ؟

على أن هذا الاسلوب غير مثمر لأن اذهان التلاميذ لا تتسع للعلم من طريق النظريات وحدها ولا سيما بالنسبة لأصول الدين

ولقد لاحظنا على كتب هذه الاصول عيبين ظاهرين أولهما عدم التزحزح عن الادلة الفقهية المألوفة من قديم بغير مراعاة لسن الاطفال وقوة مداركهم وثانيهما بعد هذه الادلة عن الاستشهادات المأخوذة من ظواهر

الكون فتستدرجهم الى التلذذ بفهمها والاقبال عليها

خذ لذلك مثلا ماجاء بكتاب الديانة والتهذيب فأنك تجده يضع مقدمته في تعريف الواجب والمستحيل والممكن وهو شيء أشبه بالمنطق بالنسبة لعقول الصبية الصغار . ألا ترى أن قوله الجسم لايخلو من حركة وسكون وأنه ليس بمتحرك ولا ساكن وأن كل شيء وجوده وعدمه سيان فهو ممكن وأن المتساويين لا يرجح أحدهما الاخر بلاسبب يعد من التعبيرات المعقدة بالنسبة لحدود أفهامهم حتى كأنك تتلو عليهم شيئاً من الجبر العالي أو أو اللوغارتم وهم لا يزالون في أول عهدهم بمباديء الرياضة الاولى

ثم اذا رجعت الى ما شرحت به العقائد في صدر هذا الكتاب لم تجد من الامثلة الا ما اريد منه الوصول الى أن لكل مصنوع صانعاً للوصول أخيراً الى أن هذا الكون وما حواه من يابس وسائل وحيوان ونبات وجماد انما هو من صنع الله وبعد ذلك يرصد هذه الآية الكريمة « الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم الخ » بغير أن يدخل في أسرار هذه الاشياء وجمالها وارتباطها بعضها ببعض ومنافعها فينمو في التلاميذ حب الاستزادة منها وترسخ في اذهانهم عظمة الله تعالى بعظمة هذا الكون .

لماذا لا ننتقل معهم من الليل الى النهار ومن النهار الى الليل ثم ندخل بهم في جسم الانسان ثم ندعوهم الى السباحة في الماء والصعود في الهواء والتقلب مع الفصول وتتبع الطيور والحيوانات وما شاكل ذلك ونحن نكشف لهم عن أسرار كل ذلك بعبارة بسيطة جذابة فيزدادون فهما وايمانا ويعتادون على الجدل الصحيح من هذا الطريق الشيق السهل

نقول لهم مثلا أن آلة التلفون كالمخ والاسلاك كالأعصاب وأن العينين جهاز نقل عنه جهاز التصوير الشمسي وان القلب كاحدى الطلمبات التي في بيوتكم وان الامعاء كذلك الانبوب الذي من المطاط الا أنه يعمل ليل نهار مدى حياة الانسان بغير أن يتعطل بالرغم من هذه الحركة الطويلة المستمرة

ثم نشرح لهم وظائف اعضاء الجسم ونوقفهم بايجاز على سر عملية الهضم والدورة الدموية والجهاز العصبي وغير ذلك

من غير شك أنهم ينصتون الينا بشغف وشوق ويدركون ان جسم الانسان مملكة واسعة « وفيك انطوى العالم الاكبر »

واني واثق بعد مثل ما مرّ أنهم يطلبون المزيد فنشرح لهم في اسلوب سهل سبب تعاقب الليل والنهار وان الله تعالى راعى أن لا ننتقل من أحدهما للآخر دفعة واحدة فيؤذي ذلك ابصارنا واجسامنا . فجعل لنا الفجر الكاذب ثم الصادق ثم شروق الشمس بالتدريج وكذلك عندما يؤذن النهار بالرحيل فلا تشعر عيوننا بصدمة الانتقال مرة واحدة من الظلمة الى النور ومن النور الى الظلمة وكذلك بالنسبة لاجسادنا بتنقلها بين وسطين مختلفي الحرارة

ثم نذكر لهم فضل الهواء على حياتنا بأوكسيجينه اللازم لتنفسنا وان الله لكي يعيد اليه ما نأخذه منه جعل تنفس النبات بطريقة معاكسة لطريقة تنفسنا فيعطينا الاكسجين الذي نحن بحاجة اليه ويأخذ الكربون الذي لا حاجة لنا به

وبمثل ذلك نذكر لهم شيئاً عن الماء اللازم لري عطشنا ولغذائنا وان سطح البحار يتبخر بتأثير حرارة الشمس فيتجمع في السماء سحباً ينعقد بعضها عند رؤوس الجبال حتى اذا استحالت الى أمطار غذت الوديان والانهار

وهطلت على البقاع البعيدة عنها كأنما هذه العملية طريقة ري سماويه حتى لا تحرم بقعة من بقاع الارض من الماء .

أما تفصيل فنقول لهم عنها ان الله كان قادرا على جعل الجو دائماً معتدلا أو حاراً أو بارداً ولكنه اراد ان يتمم علينا المثال لأن الصبر على حالة واحدة أدعى الى السآمة ولكي نوازن بين الحرارة والبرودة وما بينهما من الاعتدال فندرك لذة كل منهما وبضدها تتميز الاشياء

وكذلك بالنسبة لجمال الفصول وفوائدها فالشتاء الملبد بالغيوم الكثير الامطار هو شهر النشاط والسعي ولكن نظراً لما يعانيه الانسان في نهاره جعل الله ليله طويلا . واذا كان هذا الفصل مقفرا من أسباب الزينة حيث تسقط فيه أوراق الاشجار وتسكن فيه الطيور الى غير ذلك فإن لنا من الربيع خير عوض لأنه فصل الخصب وصفاء السماء واعتدال الهواء تبتسم فيه الازهار مختلفة الالوان والاعطار

اما الصيف فيجمع بين الجمال والفائدة ترى ارضاً ذهبية وهاجة وقد نما الزرع ونضج وهنالك الثمار اليانعة الزاهية وقد رأى الله ان يطول نهاره مع حره لانه زمن الجني والاستغلال ولكنه مقابل ذلك جعل ليله نديا جميلا

وعلى هذا الأسلوب نذكر لهم شيئاً عن الخريف وعن غيره من كنوز الكون واسراره وليس مثل هذا الاسلوب يستعص على معلم فطن ونحن نرى اهل الغرب يوقفون الشعب الجاهل على هذه الاسرار لا من طريق علمي متعب بل من طريق اقرب الى اذهانهم يسمونه التعميم (Vulgaris-ation) فلماذا لا يكون لهؤلاء الصبية نصيب من هذه الطريقة فيدركون مبلغ عظمة الله الذي كرم الانسان وامّره على هذا الكون العظيم البديع

الزواج

(القطط والنساء . التماثل في السن . تأثير الاخلاق في الزواج . الشك باب الى الغيرة . سوء الظن . الزوج يجب ان يكون مثالا حسناً . قلب المرأة كالمنشور الكثير السطوح . أحكام الطاعة . الزواج عقدة ثقيلة . رأي الغربيين في زواجهم . سعادة الزواج بيد الزوجين . ما وراءك يا عصام)

من منا لم يـ القطط ولم يخبر أحوالها

كان لي قط أبيض جميل الشكل له شعر غزير ناعم اذا وثب الى فخذيّ اخذ يتمرغ فوقهما وهو يوسع بين اظافره ثم يضمها بعضها الى بعض كأنه يتوثب لفرسها في كفي وانا أمر بها على فروه الحار الاين . ولقد يمد الي عنقه مطبقاً عينيه الخضراوين وهو مع ذلك ينظر اليّ من خلالهما ثم يتثاءب فتبدو لي انيابه الصغيرة عند طرف لسانه الوردي الخشن

وما حركاته هذه الا الى حد محدود حتى اذا اطمأن على طعامه أصبح اجنبياً يبتعد عني اذا ادنيته ويعضني اذا حاولت ان امد يدي اليه فهو حيوان متنقل كتنقل الالوان في عينيه ناعم خشن ولطيف خطر ومحب خداع لايجري الا خلف عايته حتى اذا حصل عليها قام بينه وبين صاحبه سد

وهكذا المرأة شأنها شأن هذا القط . تراها جميلة لينة رائعة تفتح لك صدرها وتنظر اليك بعينيها الصافيتين ولكنك لا تنزل الى ما وراء ذلك الصدر ولا تصل الى قرار هاتين العينين . تقربك وتقصيك وتبعدك وتدنيك واذا بسطت لك ساعديها لتضمك عادت فامّلست منك املاس ذلك الحيوان

الغريب حتى اذا اشعلت خواطرك وألهبت حواسك وحيّرتك فاشرفت على اليأس أدنت منك فمها وطوقك ساعداها فتحسب انك ملكتها ولكنها هي التي ملكتك

انه اذا كان هناك شيء يضل عنده صواب الرجل فهو قلب المرأة كاللجة البعيدة الغور او كتلك العلب التي نبتاعها لاطفالنا لا نكاد نضغط على مسمار غطائها حتى ينبثق من جوفها على غرة منا ثعبان او شيطان او غيرهما

فالمرأة في الحقيقة مملكة مهما صغرت تعجز سياستها فحول الناس وليس على وجه الارض شيء يتعب اكثر من حراسة المرأة حتى قال سقراط: ثلاثة من اكره الاشياء على نفسي : الاجرومية والفقر والمرأة . ولقد تغلبت على الاولى بكثرة الدرس واستعنت على الثانية بالعمل والصبر ولكني لم أجد لنفسي حيلة في المرأة . ولذلك اصبح كل عاقل لا يندفع الى الزواج قبل ان يتردد طويلا ويفكر كثيراً

وعلى كل حال فالواجب قبل كل شيء ان يتماثل الزوجان في السن لأن للطبيعة الانسانية سلطاناً وحكما لا قبل الى دفعهما في كثير من الاحوال ونحن نعلم أن القبلة يحصل عليها الغلام مجانا ويأخذها الشاب اختلاساً ولكن الشيخ لا يحصل عليها الا اذا اشتراها .(١) لان مثل هذه القبلة ليست قبلة الحب التي تقف عند شفاه قرّب ما بينها التماثل والتجانس(٢)

وتربية الاخلاق عليها مدار كبير في احكام الصلة بين الزوجين ودوامها

---

(١) راجع قطعة اخلاص واخلاص

(٢) راجع قطعة القبلة

لأنها تضع الناس جميعاً في موضع واحد ولكن التربية وحدها هي التي تميزهم بعضهم عن بعض .

وعندي ان الدين [1] هو أساس هذه التربية وعمادها فهو وحده الذي يحول بين النفس وبين شيطانها ويبتعد بها عن المواطن التي تغضب الله وتغضب الناس ومن ذا الذى ينسى قول الاعرابية

وذي حاجة قلنا له لاتبح بها   فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه   وانت لأخرى صاحب وخليل [2]

فالمرأة التي من هذا القبيل روضة يانعة من رياض الحياة ونعمة جزيلة من نعم الايام وكنز ثمين من كنوز السعادة . تنظر الى رجلها بعين ملؤها الشفقة والحب والاكبار والقناعة فلا ترهقه في شيء ولا تطلب عنده فوق ما تملك يداه ويقدر عليه مجهوده مهما اغراها شيطان الزينة حتى أن نساء صدر الاسلام كانت الواحدة منهن اذا خرج زوجها لعمل قالت له اتق الله ولا تكسبن الا من حلال فانا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار

على أن امانة الزوجة وصلاحها يرسلان الى خواطر زوجها السكون وألى قلبه الطمأنينة فلا يعود يشغله عن عمله من جهتها شاغل

اما المرأة التي تدع الشك يتسرب الى قلب زوجها فأنها تحول بينه

---

(١) قال اميلو : ان العاب يدفع طالب الزواج الى الحسناء والمصاحة تدفعه الى الدميمة والعقل وحده يدفعه الى المرأة الفاضلة

ولا يخرج ذلك عن معنى الحديث الشريف :

تنكح المرأة لجمالها او لمالها او لدينها فعليك بذات الدين تربت يداك

(٢) راجع قطعة الاعمى

وبين واجبه فيضطر رغما منه الى التفكير دائماً في أمرها والسهر على حراستها والغيرة عليها [1] وليس اقتل من سلطان الغيرة وأن كانت كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها لأن متاعب الغيرة ليست من الامور الهينة حتى أن امرأة يزيد بن عبد الملك لما حملت قالت له وكان قبيح الصورة الويل لك ان كان الولد يشبهك فصاح بها والويل لك أنت إن لم يشبهني

وما دامت المرأة وعلى الاخص امرأة العصر الحاضر مطية غير ذلول ولغزاً غامضاً من ألغاز الحياة فقد صار حمل الرجل ثقيلا في تفهمها واختيار أنجع السبل لرياضتها وتذليلها

وربما كان اول ما يجب عليه اتباعه نحوها هو ان لا يحسن دائماً الظن بها لأن في الاستمرار على ذلك استمراراً في الغفلة قد يجره الى اخطار لا يكون من الميسور الخروج منها أو تلافيها .

وليس سوء الظن سبة اواهانة وانما هو كالزمام يشده ويرخيه عند الحاجة فيأمن كلاهما مواقع العثرة والزلل وان سوء الظن من اقوى الفطن [2]

واذا كان سوء الظن الى حد محدود أمرا تدعو اليه الفطنة وبعد النظر والاحتياط فاولى بالرجل أذن أن لا ينخدع لدموع المرأة وابتساماتها فما كان كيد النساء عظيما الا بهما ولا كانت المرأة قوية الا حين تتسلح بسلاح الضعف والخداع دائما سلاح الضعفاء

---

(١) راجع باب الغيرة

(٢) اما قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن أن بعض الظن اثم » فلا يفهم منه اجتناب الظن مطلقاً وانما اجتناب الكثير منه فهو غير مكروه على كل حال

نعم ان شكوك الرجل لتسيل في مجرى هذه الدموع وان عزمه ليتلاشى في حرارة تلك الابتسامات لأن المرأة ماهرة قديرة على الاستعانة بهما كلما وقعت في خطأ أو انغمست في خطيئة وأدركت ان يقظة الرجل توشك أن تلمسهما . فالرجل فى هذا المقام واجب عليه ان يحترس كل الأحتراس فيمسك مشاعره ويقف بين نفسه وبين شهوته فأنه لو فعل لأفلت هذا السلاح الخطر من يدها وانكشف لعينه أمرها

بمثل هذا يصرع كبرياءها ويأمن خداعها وبمثل هذا تعتقد أنها عند حارس لا تغفل عينه فلا تلبث ان تعجب به وتحبه حتى لتتخذه معبودها (١)

ولكنه يجب أن يكون في عينها مظهراً من مظاهر مكارم الاخلاق وكمال الصفات حتى لا تقع عيناها منه على خسة أو نقص يدفعانها الى الاستخفاف به واحتقاره والخروج عليه لأن من الصعب على رجل كهذا ان يطمع في التأثير عليها مادامت نفسه غير خالصة من شوائب العيوب

وليعلم أيضا ان النساء كالقوارير كسرهن عسير جبره فليعاملهن برفق وليعاشرهن بالدعة واللين والمعروف يكسب حبهن فالمرأة كالزهرة لا يفوح أرجها الا في الظل على ان صيد الذباب بالعسل أنجع من صيده بالخل

ثم ان المضي معها الى آخر حد من حدود الشدة او الضعف كلاهما غير محمود فليسلك سبيل الاعتدال في كل شيء فلا يشتد الى حد القسوة ولا يلين الى درجة الضعف بل يكون وسطا بين ذلك فتسكن اليه تلك المخلوقة الجموح وتلين قناتها

---

(١) راجع قطعة البطل

ان المرأة كالمنشور البللوري ذي السطوح المتعددة تضل الحقيقة بين شتى الصور التي تعكسها فاذا لم يكن ما ذكرناه هاديا اياه اليها عز عليه استبقاؤها وفرت من يديه وقد انصرف قلبها عنه .

وكثير من الناس من لا يقدّرون خطر هذه الخاتمة فيعمدون الى سلاح القوة لاستعادتها من طريق الاحكام الشرعية (احكام الطاعة)

ولكنني مع احترامي لتلك الاحكام لا أرى نفعاً فيها وقلما أثمرت الثمرة المقصودة بل أنها في كثير من الاحوال أدت الى ما غاب عن حسبان الناس فان الزوجة التي أوصدت قلبها دون زوجها لن تفتحه له بعد ما أغلقه شذوذ كل منهما

وكثيراً ما رأينا أن الزوجة التي تساق بمثل هذه الطريقة سوقا الى زوجها لا تلبث ان تعمد الى الهرب او الانتحار على اية صورة لأن الطاعة لا تأتي الا من طريق الحب والرضى

ولتعلم الزوجة أيضاً ان الزواج حالة مشتركة بينها وبين زوجها لا يتم الغرض منها الا من جانبيهما معاً بل ربما كانت تكاليفها بالنسبة لها اكثر منها بالنسبة له

ان الزواج وان كان عقدة ثقيلة الا انه الدواء الذي لم تجد الطبيعة خيراً منه لمعالجة هموم الحياة والتغلب عليها وهو دواء ميسور لو انهما تساندا وتفاهما وصبرا فانهما بذلك يذللان كثيراً من مفسدات هذه العلاقة المقدسة المباركة وبعض هذه المفسدات وهي واكثرها وقتي لا يلبث ان يذوب ويفنى امام اخلاصهما وأرادتهما

وربما كان اهم ما يجب القات النظر اليه هو عدم الاخذ بالنظم والعادات المتبعة في امور الزواج عند غيرنا لان اكثرها لا يلائم احوالنا ولا يتفق مع نظمنا

ويكفي دليلا على ذلك مبلغ افلاس الناس في غير بلادنا في امر الزواج فقد يئسوا من ان يجدوا عنده السعادة المنشودة حتى ذهبوا الى أنه لا يدوم اكثر من ايام شهر العسل مادام أن عمر الحب كعمر الزهرة لا يلبث الا يوما او بعض يوم

اما الواقع فان سعادة الحياة بالزواج أمرها بيد الزوجين وحدهما ففي وسعهما استبقاؤها وفي وسعهما خنقها والقضاء عليها .

اما قول هوجو ان من يطلب السعادة الدائمة عند الزواج كمن يطلب الدوام عند الزهرة السريعة الذبول فهو قول على ما فيه من الخطر لا يدل على اكثر من أنه تملكه اليأس كغيره . وربما لم يقل ذلك الا تصويراً لحالة ذلك الافلاس التي ذكرناها لأن الزواج ماعون السعادة الخالدة لو عرف الزوجان كيف يتذوقان طعمها ويحافظان عليها وفي وسع الزوجة أن تكون زهرة متجددة عند كل صباح ومساء

ولكن الذي نراه في بيوتنا غير ذلك كما قدمنا في باب سابق فليفهم الزوجان هذه الحقائق فلا يلبثان ان ينكشف لهما جمال الحياة فيعيشان سعيدين

ولقد جاء في امثال الميداني قوله « ما وراءك ياعصام » وعصام هذه امرأة قال لها الحارث بن عمرو ملك كندة اذهبي حتى تعلمي علم ابنة عوف لأخطبها من أهلها فلما رجعت اليه ابتدرها بقوله « ما وراءك ياعصام » فصارت مثلا

ولـكن الذي أردناه من هذا الحديث أن ابنة عوف لما جهزت اليه اوصتها أمها بهذه الوصية الذهبية البديعة :

«أي بنية ان الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولـكنها تذكرة الغافل ومعونة العاقل ولو ان امرأة استغنت عن الزواج لغنى ابويها وشدة حاجتها اليها كنت في غنىً عنه ولـكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال

أي بنية انك فارقت الجو الذي منه خرجت وخلفت العش الذي فيه درجت الى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فاصبح بملكه رقيباً ومليكا فكوني له امة يـكن لك عبداً وشيكا

يابنتي احملي عني عشر خصال يكنّ لك ذخرا وذكرا

الصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة والتعهد لموقع عينيه والتفقد لموضع أنفه فلا تقتح عيناه منك على قبيح ولا يشم منك الا طيب ريح والـكحل أحسن الحسن والمـاء أطيب الطيب المفقود والتعهد لوقت طعامه والهدو عنه حين منامه فان حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مبغضة والاحتفاظ ببيته وماله والارعاء على نفسه وحشمه وعياله فأن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير والارعاء على العيال والحشم حسن التدبير ولا تفشي له سراً ولا تعصي له أمراً فانك ان افشيت سره لم تأمني غدره وأن عصيت أمره اوغرت صدره ثم اتقي مع ذلك الفرح أن كان ترحا والاكتئاب عنده ان كان فرحاً فان الخصلة الاولى من التقصير والثانية من التكدير وكوني اشدما تكونين له اعظاماً يـكن اشد ما يـكون لك اكراماً وأشدما تكونين موافقة اطول ما تـكونين له مرافقة واعلمي انك لا تصلين الى ما تحبين

حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما احببت وكرهت يخير لك »

تاييس

﴿ دولة الفسوق. من الوحل الى الحول: هداها وضل . النساك وحكم الشهوة ﴾

ان تاييس ابنة خمار ملحد لم يعن بأمرها حتى وجدت فيها العجوز مروا رشاقة ولينا فعلمتها الرقص والغناء والتمثيل

هكذا كانت تاييس بذرة كامنة في ارض الايام حتى اذا آن الاوان خرجت منها وردة ناعمة وخليعة خلابة شادت بانطاكية واسكندرية دولة للشهوة خدامها الحكام والامراء وبحراً للفسوق تموج لجه بالذهب تطأه بقدميها اللتين ما عرفنا غير أوحال الفقر

ولقد ظل هذا شأنها كأس مترعة تقدمها يد الليالي للشفاه التي اعطشها الهوى حتى بلغ بافنوس الناسك مدينة اسكندر الاكبر فلم ير واجباً خيراً من هداية تلك الفتاة الضالة الى دين المسيح عليه السلام

ومن أعجب الاشياء ان هذه الفتاة الرقيقة الهيفاء الناعمة التي أصبح لها السلطان على كل سلطان نفذت الى نفسها التي غمرتها الشهوة أنوار الهداية فهان عليها ان تنزل عن ذلك النعيم الذي كانت تمرح في مروجه وانصرفت عن زخرف هذه الحياة الفاني حتى انها أحرقت قصرها الزاهي وما به من اسباب المتاع والزينة لكي لا يبقى امامها أثر فاتن من ماضيها

أما ذلك الناسك فكأنه افرغ في نفسها كل ما كان في نفسه من ايمان وتقوى حتى اذا وجد الشيطان من ذلك الفراغ مرعى خصيباً نفخ فيه من روحه فأشعله بهوى تلك الصالحة وهكذا ضل ثم مات خاسراً متاع الدارين

هذه القصة التي تتلخص في هاتين الكلمتين (هداها وضل) وضعها الكاتب الفرنسي القدير الطيب الذكر أناتول فرانس فصور لنا فيها حكمتين بالغتين : أن الشهوة قد تضل أزهد الناس وأن التقوى قد ترد النفوس الضالة الى حظيرة الهدى

ويغلب على ظني ان هذه المقابلة بين الهدى والضلال في شخصين متماكسين لم يجر بها قلم الكاتب عفوا وانه قصد اليها قصدا لأن مثل هذا المصور القادر ليس ممن يتركون اسفارهم هدفا لحكم المصادفات وهو من كبار المفكرين

انه اراد من خلال هذا الاسلوب المعكوس ان يقضي على محاولة بعض النساك محاربة نفوسهم وتحريرها مما غرسه فيها تكوينهم من حكم الشهوة لأن هذا في الواقع خروج على الطبيعة البشرية التي لا يغلب سلطانها والتي هي حاجة من حاجات الجسم كالطعام والشراب والنوم .

على ان هذا ليس رأي اناتول فرانس وحده فقد سبقه اليه كثير من الكتاب منهم اوسكار وايلد فأنه على لسان قسيسه في احدى قصصه دافع دفاعا طويلا عن حكم هذه الحاسة وثورتها وارتباطها بمزاج كل فرد وتغلغلها في طبيعته التي لا تقهرها الاحكام

نعم ان هذه الشهوة كانت مشاعا بين بافنوس وتاييس بل انها كانت اكثر تمكنا من نفسها وماضيها يدل على ذلك فكيف اهتدت وكيف ضل

حتى لقد يظن ان اناتول فرانس وقع في الخطأ حين استقر قلمه عند هـذه الخاتمة ولـكنه لم يخطيء لان تاييس سئمت معدة حواسها هذا اللون المتكرر من طعام الشهوة فعافته ولذلك كان انتقالها الى نور الهداية اقرب من ضلال بافنوس الذي ظل طول حياته يحاربها وتحاربه وهي كلما حاولت ان تنفذ ضغط عليها حتى انفجرت مرة واحدة فكان انتقاله الى ظلمة العماية انتقالا طبيعيا أيضا .

— الحياء —

(الحياء والعفة — الاعرابي والجارية — بارومتر الاخلاق — الوردة المقطوفة — الشرف مجرم)

الحياء هو الباب الذي يدخل منه الفساد الى مخدع العفة .

خرج رجل في ليلة بهيمة فأذا هو بفتاة كالبدر بعثت في نفسه الشهوة اليها فراودها عن نفسها ولـكنها صاحت فيه :

« اما لك زاجر من عقل اذا لم يكن لك ناهٍ من دين ؟ »

قال انه لا يرانا غير الـكواكب فقالت واين مكوكبها ...

هذه الاعرابية ليست فقط موفورة الحياء بل انهـا ايضا كاملة الدين والحياء شعبة من الايمان

ولو أنها كانت غير ذلك لما وقفت منه ذلك الموقف الذي يحسدها عليه اترابها وجارته على ما اراد معها من السوء والاثم. واذا لم تستحِ فافعل ما شئت .

ولكنها غلب حياؤها عليها وعرفت قدر نفسها فسلمت من شره وأمنت مزالق السقوط والخسة

وكثير من النساء تدفعهن الصدف الى مثل هـذا الموقف الكثير الاخطار فيفلت سلاح عفافهن من ايديهن لضعف الطبيعة البشرية من ناحية ولاعتداء مثل هذا الرجل الجريء ونار الشهوة تنفذ في نفسه من ناحية اخرى ولكن حياء تلك الفتاة كان كالماء امتزج بخمرة تلك الشهوة فافسد اثرها

وهكذا كان حياؤها لعفتها سيفا وكان لها قميصا ثانيا

وربما كان سلاح الحياء اكثر مضاء من سلاح العقل

فالحياء كالايمان بينما يفكر الانسان فيه يكون قد نزل من قلبه وخواطره منزلا كريما

على انه من اين للفتاة القليلة التجربة رشد التفكير فيعصمها عند الزلل نعم انها تحصل على هذه النعمة فيما بعد ولكن حيث يكون قد فات الوقت

الحياء زينة ثانية للفتاة تجعلها اشهى في العيون واكرم على النفوس وما كان احب الى النفس من الشيء الممنوع حتى ليعد اول من ابتكر الثوب اول من ألفت عيون الناس الى محاسن الجسم البشري الذي له غير حرارته الطبيعية حرارة من اخلاقه يقف اعدالها عند نقطة ثابتة هي الحياء فليحذر الفتيات والسيدات أن تتزحزح هذه النقطة عن مكانها فقد تنزل الى ما تحت الصفر ... وليحرصن على نعمة الحياء فأنه كالشباب اذا ولى فهيهات ان يعود

* * *

الوردة المقطوفه

كانت وردة ملقاة على الأرض على مقربة من غصنها فانحنى اليها

والتقطها وقد انفرط جزء من أوراقها

وعند ذلك سمع حركة خفيفة من خلفه فالتفت وكانت ابنته تهم باجتياز باب الحديقة محاولة ان تهرب فاستوقفها

ولما سألها عن امر تلك الوردة ولمَ قطعتها هزت رأسها انكارا ولكنه اقترب منها ووضع يديه عند خديها بحيث اصبح وجهها الى وجهه ثم عاد يسألها فعادت الى ابهامها فقال لها ان عينيك تكذبان . اريني يديك ولكنها اسرعت فعقدتهما من خلفها وعند ذلك ضحك . اما هي فابتسمت قائلة :

— انني مافهت بكلمة حتى تأخذني بالكذب

— ويداكِ لمَ اخفيتهما ؟

وعند ذلك اخذها الى مقعد امام المربع الذي به غصن تلك الوردة ثم تناول يديها بين كفيه وقال لها اسمعي يا فاطمة :ان هذه الوردة كالفتاة اشواكها بمثابة الأسلحة للحياء واذن فانظرى ماذا كان من امرها معك حين حاولت اقتطافها

ابى هذا الحياء عليها الاّ ان تسقط في الميدان سقوط الشجاع بعد أن تركت في يديك اثرا من جهادها فتلك الوردة هي أنت وتلك الاشواك هي الحراس على حيائكن ايتها الأبكار .

* * *

الشرف مجرم

ذهبت مرة مع أولادي الى احدى دور السينما ولكننا خرجنا منها مروعين على اثر القصة التي شاهدناها وتتلخص في زوجين جميلين كان

موردهما من عمل ضئيل ومنزل يسكنان ناحية منه ويؤجران باقيه وكان مرهونا عند شيخ من تجار النقود فلما وافى اجل الدفع ذهب الزوج اليه متوسلا أن يرجئه الى أجل آخر فأبى وكان من وراء ذلك عرض هذا المنزل للمبيع وهو كل ماتملك يداه

وعند ذلك فكرت زوجته في الأمر فرأت أن تسعى هي عند ذلك الدائن وللسيدات كرامة واحترام يذللان كثيرا من الصعاب ولا سيما أنها كانت رشيقة فتانة فلما ابصر بها التاجر حياها وتلطف بها وأسرف في اكرامها حتى اذا كاشفته السبب الذي جاء بها اليه اخذ يعدها بعبارات غامضة ثم لا يستقر على وعده حتى يعود الى القول بأن في الامكان حل هذه العقدة مما دل على ان في نفسه أمراً يكتمه

واخيرا طلبت السيدة منه جوابا صريحا فلم يرَ بداً من القاء ذلك القناع الذي حجب به عنها وجه غرضه

— كل شيء ممكن ياسيدتي

— اذن تقبل ان تجدد موعد هذا الدين ؟

— ليس في وسعي ان أقول اقبل او لا اقبل لأن الدفع من ألزم الأمور في الوقت الحاضر ومع ذلك فالمسألة يمكن حلها من طريق آخر

— وما هو ياسيدي

— اذا كنت تكفلين زوجك فأني اضغط على مصلحتي وارضخ

— وكيف تطلب كفيلا عند من لا تملك شيئاً

— لا تقولي ذلك فانت تملكين فوق ما املك أنا . أليس هذا الشباب

الغض خير كفيل ياسيدتي ومع ذلك فان الناس ليعذرون اذا دفعتهم رشاقتك الى الافتتان بك

— ماذا تقصد أيها الرجل

— أنت تريدين ان اضع طلبك في احدى الكفتين فما الذي اضعه في الكفة الأخرى

— تضع نذالتك يا لص الأعراض

وعند ذلك بصقت في وجهه واختفت

ولما عدنا الى المنزل كان أثر هذه القصة لايزال آخذا بخواطرنا وكل منا يفكر في امر هذين الشقيين وما حاق بهما من الفقر والشقاء والجوع .

وعند ذلك صاح احد اولادي : من المجرم في هذه القصة ياابي . اليس ذلك التاجر الفظ القاسي فقلت له انه جرم لايراه الناس وقد ستره عن عيونهم بما له من المال والجاه . وفي الحياة كثيرون من امثال هذا الرجل يجرجرون اذيال النعمة والرخاء وقلوبهم اسود من الليل لا تضم غير الجشع والحقد وحب النفس

فقال اخوه انا ارى الذنب على الزوج الذي لايحسب لحياته حساباً حتى وقف مع زوجته مثل هذا الموقف فأفهمته ان هذا الحكم ليس دائماً بصحيح وربما لم يكن بمقدوره ان يمنع هذا الدين

وعند ذلك صاح الثالث الم تجد زوجته سبيلا آخر تتلافى به هذه الكارثة فقلت له لم يكن هناك من سبيل الا ان تضع شرفها في تلك الكفة فصاح : اذن الشرف مجرم .

اسمعوا يا أولادي :

أن هناك شرفين احدهما شرف النفس الطاهرة النقية وهذا ان أحاطت به الحاجة والدموع أكليل من السماء مكانه الرأس يزينه ويبعث من حوله النور والثاني شرف الشهوة من اي سبيل كان تحقيقها وهـذا وان حاط به الغنى والمظهر الا انه مرتبة لا يبلغها غير المخاتلين فوق جثث المظلومين من الناس فأي الشرفين تختارون ، فصاحوا صيحة واحدة

شرف النفس يا أبي !

الحب

(ما هيته . سعادة الزواج بالحب . حب النوع لا الفرد . حب الفرد . مفسدات الحب . الهجر . الخصام . الوداع)

من العسير ان نجد للحب تعريفا شافيـا نقف عنده ونستريح لديه . وكل مايمكن ان يقال فيه انه مرض يشتهي الناس ان لا يشفوا منه مع انه لا يجني من ورائه العقل غير الاضطراب والنفس الا الجزع والخواطر الا التفكك حتى انه لا فرق بين من يحب وبين من يصيبه مس من الجنون

وربما نشأ هذا عن خيبة الرجاء عند من يبتلي به

ومن البلية ان تحب ولا يحبك من تحبه

ولـكنه مع هذا يجد في ما يعانيه بسببه من الوان العذاب لذة وراحة لأن الأمل يغشى عينيه فلا يبصر حقيقة الواقع حتى انه يعمـل ويكد ويستسهل كل صعب ليلفت نظر محبوبه اليه . ولهذا كان الحب كقطرة الندى

تسقط فوق غصن الحياة فتبتسم وتحلو ولهذا ايضاً كان ينبوع حرارة مباركة لا ينضب. ينعس الخلائق ويصل بين نفوسها وبين كل سبب من اسباب الهمة والفضيلة ويضع على شفاهها اعطر قبلات السعادة والسلام

واذا كان هذا حال الحب الذي كتب عليه ان لا تتغذى نفسه المعذبة الا بحلو الاماني وشهي الامل فكم يكون نصيبه من هناء الحياة ونعيمها لو ان الحب مشاع بين القلبين وغاية النفسين

ما أجمل مثل هذه السعادة تكون صلة دائمة بين الازواج

وربما كان الحمام من خير الامثال التي تضرب للناس على صفاء الحب وخلة الامانة حتى أن شعراء القرون الوسطى وعلماء التاريخ الطبيعي اجمعوا على ان ذكر الحمام لا يأتلف بغير انثى واحدة فاذا ما ارتبط بها عميا عن كل ما حولهما الا عن نفسيهما ناعمين سعيدين حتى اذا مات أحدهما بلغ الاسى من قرينه أن يقضي شطر حياته الباقي صابراً وفياً

فيا أيها الازواج الذين ارتبطتم ارتباطاً مباركا وأقسمتم أن تكونوا أمناء فيما بينكم وأنتم تحنثون في اقسامكم وأيمانكم كل يوم كيف يكون مثل هذا الطير الابكم اكثر منكم شعوراً واوفر احساناً ووفاء ؟

واذا كان من حسنات هذا الحب انه يؤلف ما بين القلوب فأن الشديد منه غير محمود عند الاقبال على الزواج فليس الحب الا كالنبيذ اذا اكثر الخاطبان منه أضاعت صوابهما النشوة فعميا عما قد يكون عند كليهما من المساويء

ومع ذلك فمفة الزوجة في أول عهدها بالزواج انها لا تفهم من الحب اكثر من حب النوع لا الفرد فهي تحب خاطبها كما تحب غيره من الخاطبين

لأنها امرأة ولأنه رجل ولأنه أول من همس في أذنها شيئاً من هذا الحب الذي تجهله . تقبل عليه كما يقبل الظمآن على الماء يروي به عطشه ولو كان متعكراً موحولا . بخلاف من سبق لها الزواج فانها تتقدم الى زوجها الجديد من طريق التجربة وقد خبرت غيره من قبله كما لو آثرت نوعا من الشراب على غيره لا لأنها عطشى ولكن لأنه في عينها أحسن من سواه

فطبيعة الفتاة التي لم يسبق لها بالزواج عهد طبيعة تساعد الزوج العاقل في الغالب على توجيه قلبها الى ناحيته فيعيش كلاهما سعيداً

نعم أن الحب يحيا ويتجدد من نفسه كلما نما وفاض الا ان هنالك ما قد يعترض سبيل فيضانه فيقف أو يجف .

واكثر مفسدات الحب الهجر والانصراف . نعم قد يزيد ذلك في شعلته ولكن الهجر اذا طال قتله رقضى عليه لأن الحب الذي يعبث بالزمن يعبث الزمن به أيضاً . وفرق بين الحب الذي ينطفيء فيمكن أن يعود الى الاشتعال والحب الذي صار رماداً فلا تنفع في احيائه حياة

وما يقال في الهجر يقال أيضاً في الخصام فأنه اذا لم يتعدّ حد العتب كان كالشمس تخرج من فجوات السحب اكثر حرارة ، اما اذا تجاوزه واشتد فقد ينقلب بغضاً يقضي في كثير من الاحوال على ما بقي من أثر الحب

وربما كان هذا الباب هاما لان أغلب فتيان العصر الحاضر وفتياته قام بأذهانهم أن الزواج السعيد هو الذي يقوم على الحب المتقد الثائر فهم لذلك يتراسلون ويتواعدون ويتقابلون للتزاور والنزهة في غفلة من اهلهم وذوي قرباهم وقد فاتهم ان الشباب شعلة لا تطفئها شعلة مثلها .

على ان الشرائع ومنها شريعة النبي (صلعم) اباحت للرجل أن يرى

وجه خطيبته وكفيها وقدميها ليكون كل منهما على بينة من قسيمه في الحياة. ولو أن الشريعة رأت أن مطلق الاختلاط كاف لحكم كل منهما على اخلاق الآخر لأباحته لأن الوقوف على تلك الاخلاق يتطلب عشرة طويلة وطبيعية لا تأتي الا من طريق الزواج نفسه أما قبله فان كلا منهما يجتهد أن لا تقع عين صاحبه على عيوبه فيتكلف كتمانها

ومع ذلك فأن سيال الحب كالجولان المغناطيسي يسهل ظهوره فى الحديد ولكن ما اسرع زواله كما انه يبطؤ ظهوره في الصلب وفي هذه الحال يكون عسير الزوال

* * *

الوداع (١)

الوداع واذا شئت أن يكون ناءعة لمطافنا فليكن الوداع الاخير . على ان قسوتك هذه لن تثير من قلبي شهوة السخط عليك

لمَ لا تقرئن فيه وكثيرا ما وسدت عنده رأسك فغمر جفنيك هنيء النوم الذي لن تذوقي طعمه بعد الآن ولو انك اطلعت على ما استقر في اعماقه من الخواطر لساءك أن يكون نصيبه من استخفافك ما يعانيه الآن من مرير الألم

على انك لو سلمت في قسوتك معه من ملام الناس او أنهم استطابوا ما تجرعينه كل يوم من كؤوس اللوعة فاعلمي أنه ليس هناك سبة اكبر من ان يصاغ الثناء للقاتل على حساب القتيل

---

(١) لبايرون

اني بشر غير معصوم فانا لا انكر عيوبي التي افسدتني في عينك ولكن اذا كانت هذه مشيئة الأقدار فلمَ اختارت للبطش بي ساعدك الذي طالما طوقت به عنقي

ان الحب قد تبرد ناره ولكن شيئاً فشيئا فعلامَ يحاول الناس اذن أن يقفوا دفعة واحدة بين قلبي وقلبك بعد ان امتزجا

هنيئاً لك الحياة التي تنعش فؤادك اما فؤادي الجريح فقد قضت عليه شقوتي بان لا تقف دقاته وهكذا لن أحيا الا لأتعذب وقد قدّر علينا أن لا نتلاقى

وربما كان في هذه الكلمات من الألم اكثر مما تذرفه المآقي من سخين الدمع فوق قبور الموتى فهكذا يعيش كل منا ولكننا عند بزوغ كل فجر لا يستيقظ كلانا الا عند وسادة ترمّلت من أحدنا !

الغيرة

(منشأ الغيرة . الغيرة مرض النفوس الحساسة . غيرة همذاني وغيرة زوجته . خطاب)

اذا كان لكل شيء آفة فآفة الحب الغيرة

وتنشأ من تسرب الظنون الى النفوس تملك عليها كل سبيل فلا تدرك ولا تشعر . وليس اثقل على المرء من أنه يرى سلوة نفسه تفر من بين يديه

او يعبث بها هوى غيره فيشتد غليانها ويثور بركانها وقد اصبح زمامها في غير يده

وهكذا يكون اثر الغيرة كالهذيان الذي يصدر عن المحموم ولكنه هذيان قد يصل الى حد الجنون فلا يترك من حوله الا خرابا وحسرات

وكثيراً ما تجر الغيرة الى هذا الأثر السيء حتى لو لم تكن المرأة الاخليلة الرجل فما بالك وهي حليلته وسبب هنائه ونعيمه

والغيرة مرض النفوس الحساسة وهي تقوم على مجرد الوهم والتشكك حتى ان كل ما صادفها في طريقها يصلح لأن يكون غذاء لها فتنمو وتشتد كالشرارة لا تلبث ان تصير ناراً او كالدخان القليل اذا تمدد ملأ فراغاً فسيحاً من الفضاء يحجب عن الانسان حقيقة الواقع فيضل ويثور

ويزيد هذه النار اشتعالا شعور النفس بكرامتها وقد جرحها سوء الظن حتى عدّ الافرنج غيرة الخاطب احتراما وغيرة الزوج سبّة وان كنت لا أرى ذلك لان الغيرة واحدة على كل حال فكيف لا يؤاخذ من لا يملك سببها ويلام من امتلأت يده من هذا السبب ومع ذلك فلا سبة في جميع الاحوال وما كان الغرض الا حماية المرأة ودفع اليد العادية على الحق

ولقد ورد في الخبر ان رجلا من همذان تزوج بابنة عمه وكان يحبها ثم ضرب عليه السفر الى أذربيجان فرحل عنها حيث اصاب خيراً كثيراً واستفاد جارية اسمها حبابة وفرساً اسمها ورد فلما قفل القوم احجم عن مصاحبتهم خشية ان امرأته تمنع الجارية عليه مع شغفه بها وهو يقول

الا لا أبالي اليوم ما فعلت هند　　اذا بقيت عندي حبابة والورد

فلما سمعت ذلك امرأته ارسلت اليه :

الا أقره مني السلام وقل له	غنينا بفتيان غطارفة مرد
اذا شاء منهم ناشيء مد كفه	الى كفل ريّان او كثب نهد
فارسل لنا منك السراح فأنه	منانا ولا ندعو لك الله بالرد
اذا رجع الجند الذي انت منهم	فزادك ربّ الناس بعدا على بعد

فلما وقع كتابها في يده باع الجارية وبادر اليها فاذا بها في مصلاّها فسألها ماذا فعلت قالت معاذ الله ان اركب محرماً وانما اردت ان تذوق ما أذقتني من طعم الغيرة .

اغار عليك من الناظرين فلو استطيع طمست العيونا

ومن هذا نرى ان الغيرة وان كانت واجبة لانه (لا خير فيمن لا يغار)الا ان التغالي فيها مجلبة الضرر والخطر فقد يكون من وراء اتهام الرجل المرأة في غير تهمة دفع لها الى ارتكابها فيكون كمن جدع انفه بيده

***

خطاب [1]

صديقي !

قضي الأمر وانفجر ذلك البركان الذي ظل زمناً يغلي في الخفاء وهي لا تفتأ كل يوم تلقي فيه من وقود خفتها واستخفافها ما وسعها حتى بلغت الشدة غايتها وكان ما كان

ولقد كنت لاأرى فيك وفيها غير عدوين مما كان من حركاتها وحديثها

---

(1) حادثة وقعت لصديق وقد سمح لي بنشر خطابه مغفلا منه اسماء الاشخاص

يثير ريبي ويترك باب الظنون مفتوحاً على مصراعيه لخواطري

وكم كانت تلك الخواطر تأكل جسمي وتحرق دمي حتى ما كنت لأذوق طعم النوم عنـد الساعة التي يستيقظ فيها الناس كأني خفير داخل بيتي كتب عليه أن لا يغمض له جفن الى تلك الساعة. ثم اذا نمت بعدها كان نومي شراً عليّ وهو مضطرب مزعج لأنني وانا نائم ايضاً ما كنت أرى في حلمي الاصدى ما أرى في يقظتي حتى اذا استيقظت لا اشعر بأني كنت نائماً والخواطر من نوع بعضها وعلى اتصال واستمرار في اليقظة وغير اليقظة

الا تراني مسكيناً معذباً حائراً لا تهدأ لي نفس ولا استقر عند خاطر يخفف عني شيئاً من ذلك الهم الالبم الطويل. ولـكن الغيرة شر ما يقتل النفوس التي تنبهت مشاعرهـا ورقت حواسها. ان المدى والسموم والنار تقتل ايضا ولـكنها رحيمة لا تدع النفوس تتعذب اكثر من بضع ثوان. اما الغيرة فعذابها الليل والنهار والايام والشهور والسنين وتنتهي اخيراً بالجنون او الانتحار او الانفجار على تلك الصورة التي رأيتها .

ولقد فرّت من وجهي بعد ان كادت تريحني من عذاب العيش فلم تقف لحظة امام دمي ولعلها تكره مرأى الدم ولـكنها تستمرىء طعم سفكه

على اني رأيتك في تلك اللحظة الى جانبي مكباً على رأسي تجس دمي وتواسيني في جزعي وتتلطف بي وتتوجع معي حتى لأذكر انني رأيت دموعك من خلال دمعي فهل كانت صادقات ام كانت تكذب عليّ من خلل المآقي وتتهكم بي وأنا في ضعفي وهل اتهمك بالرياء والـكذب أم اتبع حكم وجداني الذي لوّح لي باخلاصك في تلك اللحظة المريرة

اني الآن ياسيدي بعد ما فرط في حلّ من كل ظن وجهته اليك وما زلت مسوقا الى الحكم بما أنا متأثر به فاذا قدر الله وخانني صديقي فأني اترك أمر محاسبته له . واذا كان قد كتب له (كما قدرته) أن تضعه تلك الظروف الطائشة موضع الريبة مني وأنه كان باقياً على حبي وافياً في صداقتي فأني أمد اليه يدي بالاعتذار

نعم يا صديقي اني تعذبت كثيراً عذابا لو علم به انسان لبكاني وشاركني همي . اولا تذكر ما سمعته في صباح هذا اليوم من أمر ذلك الرجل [١] الذي إئتمن على زوجة صديقه في غيبته فلما وسوس اليه الشيطان وزين له الضلال همّ الى جسمه فبتر منه ما كاد يوقعه في الاثم . وما كنت والله متعمداً ان اذكر لك هذا الحديث ولكني حين ذكرته تنبهت نفسي فاذا بي اسوقه اليك وانا اخاطبك من اعماقها : ماذا فعلت معك ايها الرجل حتى تقف بيني وبين سعادتي وكيف تستسيغ ان تكون في الظاهر صديقي وفي الباطن قاتلي واخيراً اتوسل اليك في خاطري ان لا يطوح بك سكر الشباب فتصل بيني وبين همي وتضغط على محاجري لتجري منها سيول دمعي وكأني استجديك الوقوف عند حد هذه الامانة

اما تلك السيدة التي كانت سبب كل هذا فالله يعلم اني ما ظلمتها يوما وانني كنت أتعهدها بالخدمة والرضى والحب كما يتعهد البستاني احب الزهور اليه فماذا فعلت معها غير ذلك حتى يكون هذا نصيبي منها في آخر ايامي .

واذا كان ذنبي كله غيرتي عليها فهل كان فى ذلك الا شرفها وشرفي وسعادتها وسعادتي .

---

(١) راجع الحاشية التي بآخر هذا الخطاب

على انني تحملتها وانا صابر صبر الكرام، حليم حلم الانبياء فما عرفت لي هذا الفضل فهل اقدر بعد هذا ان اشهد الله على ان كل ما كان في نفسي خرج مع ذلك الدم الذي نثرته مني يدها الطائشة . لا أدري وبيني وبينها ولد حتى انني كلما وقف شبح العزم امامي وقفت صورته بينها وبيني فما اشد ما اقاسي وما اشقاني

سياسة الزوجة

تتكون عائلة روبير فرجان منه ومن زوجته أيرين وتشترك معهما في هذه القصة اختها بولين وصديقها ميشيل دافرنييه

وكان هذا الفتى قد اختفى يوم زواجها لانه كان يطمع ان تكون له ولكنه عاد اخيراً مشبعا بآراء غريبة اذ يرى في الميلاد والموت والزواج ثلاث مراحل كبرى للحياة وهو يسوى بينها وبين بعضها قائلا ان المرء لا يفكر في أمر نشأته لانه يولد رغماً منه كما يموت رغماً منه وأن الزواج أيضا يتم بغير أن يفكر فيه الا بقدر ما فكر فيهما فقد يعرض له على حين فجأة بحيث لا يكون له سلطان على عمل الطبيعة التي هيأته . وهكذا يرى هذا الفتى ان

ومن قبيل الحرص على الأمانة قول ابي عبيدة: لم تف امرأة لزوجها الا قضاعيتان نائلة ابنة الفرافصة امرأة عثمان رضي الله عنه وذلك أنه خطبها معاوية لما قتل عثمان فقالت اني رأيت الحزن يبلى فلم آمن ان يبلى حزني فتدعوني نفسي الى التزوج — وامرأة هدبة فلها حين قتل زوجها قطعت انفها وكان جميلا لئلا يرغب فيها

كلمة (قبلت) التي تخرج من فم الزوجين انما هي صوت الطبيعة المختفيه فيهما كما ان اول صرخة في ساعة الميلاد هي صرختها وان آخر زفرة ساعة الموت هي زفرتها

اما العلاقة بين فورجان وزوجته أيرين فما كانت مرضية لأنها عصبية المزاج وهو مع انصرافه عنها كثير الجفوة شديد التغالي حتى بلغ من امرهما أن طلبت منه طلاقها فرفض مستمسكا بعقد زواجه بها وقد جعل له في عينه شبه سلطان عليها

ثم يعود ميشيل دافرنييه بعد غيبته كما قدمنا فيسممها بافكاره الحديثة ويهز سكونها حتى أن توسلات اختها لديها لم تجد نفعاً مما يرى اثره في المناقشات التي سنذكرها

(بين بولين وفرجان)

تلومه بولين على أنه لا يسعى لينشر السكون والسلام على بيته غير مفكر فيما تشعر زوجته به من ألم الوحشة اثناء غيبته أما هو فيعتقد أنها تخدعه حتى أنها تظهر دائماً عبوسة ساعة تناول الطعام فاذا انصرف عادت بشاشتها اليها

(بين فرجان وايرين)

يقول لها مهما حاولت أن تمنعيني من محادثتك في شؤوننا فلن يسعني الا ان أوقفك على الخطة التي عولت على اتباعها أخيراً

انك من اشهر طويلة تضعين بينك وبيني حائلا من سوء الصحة واضطراب الأعصاب وما كنت لتخدعني هذه الأمراض الوهمية فعمدت

الى الوسائل الكبرى لاشفيك منها . واذا كانت حياة باريس عاجزة عن الوقوف بين تلك الامراض وبينك فقد تركت لك الخيار بين موطنين كلاهما صحي لأنهما في وسط الفلوات بعيدان عن هذه المدينة التي افسدتك .

وعند ذلك تجيبه ايرين بأنها ما اعترضت عليه في تسوية امور املاكها ولكنها ترفض الاشتراك معه فيما يتعلق بالمستقبل لأنها سئمت العيشة معه على كل حال .

ولكنه يرجع السبب اليها وأنها اذا غيرت من طبعها يغير من طبعه فتصيح أن هذا فوق يدي لأني حين تزوجت بك ما طلبت اليك الا ما تطلبه كل فتاة مثلي وهو أن اوفق الى حب اسعد به ولكنني لم افلح ولم اجن غير الألم والعذاب

وعند ذلك قال لها فرجان ان فيما تذكرين امتهاناً للواجب وانكاراً لحقي عليك فقالت لم يكن فيما ذكرت غير صوت وجداني يصرخ ويشكو وهكذا يرميها بالجنون وهكذا ترميه بقلة العقل

وعلى أثر هذه المناقشة تجتمع ايرين بأختها وتسر اليها اصرارها على طلاقها ثم يزورها بعد ذلك ميشبل ليحدثها حديثا طويلا لا يدور على غير الحب ونعيمه حتى اذا شعرت بزوجها مقبلا دفعته الى الحديقة من باب خاص. أما زوجها فيعود الى القول بأنها انما تسوقه الى الشطط فتسأله عن سبب استبقائه اياها وهي تظنه لا يزال يحبها فيصيح كلا كلا . لم يعد لك نصيب من حبي بعد ما أفسدت عليّ حياتي (١) فانا انتقم لنفسي منك وقد اخذت

---

(١) ربما كان هذا التصريح اكبر خطأ وقع فرجان فيه نحو امرأته وسنرى ما يكون من وقعه في خلال هذه القصة

عليك يوم زواجنا صكا يجعلك لي الى ماشاء الله وحينما تقول له أنها تنكر كل شريعة تجعل من الانسان ملكا ابديا لسواه يغرق في الضحك لأن الاتصال عنه لا يمكن الا برضاه ثم يشتد معها فتلوّح له بأنها تخلق الفرصة التي تدنيها من غرضها حتى هددها هو أيضا بتضييق الخناق عليها واعادتها اليه بقوة الاحكام فيما لو حاولت أن تفر فقد طابت نفسه الى ذلك ثم يتركها وينصرف وقد فاض اناء صبرها وطفح فتفتح باب الحديقة وتنادي : ميشيل . حتى اذا اقترب منها اندفعت الى صدره وألقت بنفسها بين ذراعيه ....

(بعد عشر سنوات في القرية)

بعد عشر سنوات وهما بالقرية يعود فرجان الى نغمته السالفة بشأن ربيبه ولدهما وتربيته لأنه يرى ارساله الى مدرسة بعيدة يعتاد فيها النظام والمسؤولية أما هي فتقف دون هذه الارادة لضعفه ولأنها أدرى منه بدائه وهي في كل ليلة تقوم اليه اكثر من مرتين كلما أخذه السعال

أن قلب المرأة يجب أن يملأ فراغه حب الزوج واحترامه والا تهيأ لحب آخر اقوى لان الطبيعة تنفر من كل فراغ

ولقد سمعت من سيدة متزوجة تقول لزوجها وقد أساء اليها احذر عاقبة مثل هذا فان التي لا تجد عند زوجها كفاً تداعب خدها لا تعدم كفاً اخرى غيرها

ومما يذكر في هذا الصدد أن القائد الاغريقي ايفيكرات بعد أن هزم المصريين الثائرين على الفرس والجأهم الى مضيق لا يخرجون منه الا اذا فتحوا لهم في صفوفه ثغرة وقف عند هذا الحد قائلا : « لن اترك لاعدائي فرصة يستبسلون فيها » وقد اصاب لان الضغط الشديد لا يعقبه غير الانفجار

ولـكنه يصرّ على رأيه فتصر هي أيضا على رفضها وعندئذ تجري بينهما المناقشة الحادة الآتية :

فرجان — قلت لك يجب

ايرين — مطلقا فانا اتولى الدفاع عن حياته . مهما كان من الامر

فرجان — يلوح لي انك عدت الى ما ظننتك شفيت منه ومع ذلك فقد رأيت كيف امكنني ان اكون معك زوجا وسترين اليوم كيف سأكون أبا .

ايرين — لقد مضى ذلك الزمن الذي تزعم انك هزمتني فيه اما الآن فليست زوجتك التي تخاطبك في شأن رينيه وانما هي أمه

فرجان — اذن فأنت تجهلين حقوق الامهات ومع ذلك فلامحيص من ارساله ما دمت اريد ذلك

ايرين — ولـكنك تدفعني الى الالتجاء لآخر سلاح يحول بينك وبين هذه الارادة

فرجان — انه ولدي

ايرين — انت تظن ذلك

فرجان — أولست بأبيه؟

ايرين — لا

فرجان — (مضطربا ذاهلا) ماذا اسمع . انك تكذبينني

ايرين — لم تعد لي حاجة الى الـكذب

فرجان — (مغضبا) آه يارب . اذن اخرجي به من هنا

ايرين — ولن نخرج ايضا

فرجان—انا أضطركما (يجلس على مكتبه ويكتب) هذا هو الطلاق الذي كان من اكبر امنياتك

ايرين—ولكنني لا أقبله بعد ان ولى شبابي وخاب رجائي وضاع معك مستقبلي

فرجان—اذن بالرغم مني اتحملك

ايرين—كما تحملتك من قبل وما سقيتني غير كؤوس الأسى والدموع

فرجان—لا عدل اذن فوق هذه الارض

ايرين—عدل الألم المشترك

فرجان—ولكنك مجرمة وأنا بريء

ايرين—كلا وانما كلانا شقي وعند الشقاء يتساوى البؤساء !

الاعمى

في احدى قرى فرنسا الكثيرة الأمطار شارع ينزلق عليه المارة يسكن في جهة منه الاستاذ لويريه وجرمين زوجته وهي لا تزال في شبابها وأن كانت حزينة مكتئبة . اما زوجها فابيض الشعر وان لم يتجاوز الأربعين من عمره وهو اعمى ومع ذلك يعطي دروساً بمدرسة في تلك القرية . وكانت معطلة في ذلك اليوم فدعاها الى الخروج للنزهة ولكنها قالت أن السماء تهطل كما هطلت بالأمس وكما ستهطل في الغد

وعند ذلك شعر بحزنها للحياة الشقية التي تقضيها معه وهي تنكر عليه ذلك حتى قال انني ارى أثر الحزن على وجهك . نعم أنني اعمى ولكن

النور اذا كان لا يصل الى عيون العميان فان مشاعرهم الباقية تصل الى نفوسهم مضاعفة فتظل يقظة في الظلام لا يشغلها شاغل عن التحليل والادراك فنحن انما نرى بالحواس والاهتزازات وبتلك القوة المغناطيسية التي تنشع عن اجسامنا واجسام من نحب فيتاح لنا أن نقرأ في وجوههم بغير أن نراهم .

ومع ذلك لمَ تحاولين اخفاء هذا الحزن وهو ظاهر . العلك تحاولين ان لا أشعر به تخفيفاً لالمي . نعم يكون ذلك ولكن ألست في عذاب على كل حال وانت تذوقين مرارة هذه الحياة بهذه البلدة السيئة في هذه الدار الحقيرة والى جانبك أيضاً اعمى . نعم لقد حرمت افراح الحياة ووسائل الزينة التي كان يجب أن اطرحهما عند قدميك

اما هي فقالت بلطف انك اذقتني طعمهما من قبل ثم ما ذنبك انت الآن وما اصابك في عينك وفي مصنعك العامر انما كان من قضاء الله فقال صدقت الا ان الرجل في عين زوجته مخطيء دائماً ما دام انه لا يقدم لها كل ما تطلب .

واني اقول لك هذا بالرغم مني لأنني كرهت نفسي ولأنك في كل ظرف جديد تقدمين لي تضحية جديدة على حساب سعادتك وهنائك حتى انك تقاسمينني عملي فأنا دائماً متهم بعدد هذه التضحيات

انك تحاولين باخلاصك لي كل يوم ان تجعلي لشبح السعادة وجودا حقيقياً وانا مضطر الى القبول مادمت اشعر بما في ذلك من الحلاوة . وربما كانت تلك المحاولة منك ترياقا يشجعك على اكرامى ولكن بالرغم منك لا يزال الحزن شاغلا فراغ قلبك على تلك الحياة الضائعة والسعادة المستحيلة

نعم يجب أن ادرك ذلك من لفظ واحد تنطقين به وحركة واحدة

تصدر عنك فانا الذي يجب ان اختفي لولا انني لا يزال في نفسي شيء من حب النفس

وعندئذ تهلل وجهها واقبلت عليه تسأله فقال :

اني متى غبت عنك تستطيعين ان تنشئي لك من جديد مستقبلا ثانيا وانت لازلت جميلة محبوبة ولكن اين لي هذه الشجاعة ياجرمين وأنا احبك ايضا وان كنت اعمى حتى لقد بلغ من أمر حبي لذاتي انني اشعر دائما بالعبادة الى جانبك وهذا اقصى ما تصل اليه الانانية . اشعر بأن تكوني بالرغم منك لي وحدي يحيط بي من بقائك الى جانبي غلاف من العناية وجو من الحنو في فراغ عزلتنا هذه القاسية ولذلك فاني احمد الله على هذا الحادث الذي اغلق نافذة الحياة من دوني لأني لا أدري ماذا كانت الاقدار تخبئه لي لو انها ظلت مفتوحة كما كانت من قبل . نعم ليس من المروءة أن اصرح لك بهذه الخواطر ولكن ما دمت قد اعترفت فاصفحي عني

اما هي فقالت له كيف تطلب صفحي وأنت تكاشفني الحب ولكن ماهذا الذي يترقرق في اجفانك فصاح دموعي اظننت ان الموت انساها البكاء ياجرمين !

وعند ذلك اتجهت نحو المكتب الذي فوقه اوراق التلاميذ وهي تقول مادمنا لانخرج فلمَ لا نخفف عنا حمل الغد . لعلك تذكر موضوع الامس يالويريه . على اني سأتلو عليك اوراقه كما عودتني وانت تملي ما تراه فيها (يجلسان فتقرأ عليه وهو يدلها على مواضع الخطأ والصواب وبينما هما كذلك تنبههما الخادمة الى مجيء زائر اسمه دارفول لا يعرفانه يطلب مقابلة

جرمين . وعند ذلك يدعها زوجها ويخرج الى الغرفة المجاورة متلمساً الباب وهو يمر بيديه على اثاث الغرفة)

ولكن كم كانت دهشة جرمين حين وجدت في ذلك الزائر سافيل الذي تعرفه من قبل وهو يقول لقد كذبت وغيرت اسمي لكي اصل اليك وعند ذلك شعر بنضبها ومحاولتها القيام فاستحلفها ان تبقى قائلا انك تعلمين مبلغ احترامي لك . على ان صدفة غريبة هي التي دفعت بي اليك فلقد لمحتك بالامس فتنسمت اخبارك وأنا لا أقوى على الصبر عنك .

ولقد مضى عليّ اثنا عشر عاماً لم اراك فيها ولكنني وأنا الآن الى جانبك فكأني لم يمض عليّ شهر واحد . وماذا يخيفك مني . ان ذكرى الايام الماضية لا تعد خطيئة

ولقد سمعت عنك امورا غريبة ياجرمين وان زوجك اصيب بالعمى وان معامله الزاهرة لم يعد لها أثر حتى اضطر وهو على هذه الحال الى مهنة التعليم وانت الى جانبه تساعدينه . ألعل ذلك من بعض مظاهر التضامن بين الزوجين ولكن الا ترين ان الحظوظ كأوراق البخت لأنني كلما فكرت في آخر اجتماع لنا من اثني عشر عاما لا أنسى ان اهلك في ذلك اليوم ارادوا لك الثمرة الرابحة فآثروا ذلك المهندس ملك الاحلام المالية على ذلك المصور الذي كان موضع احتقارهم . ولكن المهندس فقد جناحيه وأما المصور . . . فقاطعته انني لن ألومهم على ذلك وما ارادوا غير خيري . فقال ليس من ارادة الخير ان يدفع الناس بأولادهم الى زواج لا يشترك شعورهم فيه لانك انما تزوجت به بالرغم منك او انك ما كنت تحبين الاثنين معاً

وعند ذلك قالت له وهل ذكرت لك يوما ايهما كنت احب . تأكد انني راضية بنصيبي سعيدة بالحياة معه فقال نعم سعادة من يلتذ بالتضحية على انك لا تجرئين على القول بأنك كنت تحبينه حين تزوجت به . واذا كان قلبك لم يمل اليه في تلك الساعة التي كان فيها يطرح عند قدميك كل اسباب الزهو والزينة والغنى فكيف بك الآن وقد اصبحت لا ترين معه كل يوم الا حزناً وبؤساً

اما هي فصاحت به لقد وهمت فان حبي له الآن يتجاوز كل حب فقال لعله من قبيل حب الراهبات للمرضى المفجوعين لأن قلب المرأة عضو له عيون كثيرة منها ما هو للشعور والعواطف وما هو للرحمة والشفقه ومنها ما هو لثورة الحب الحقيقية فالقلب اذا هاج وثار لا يدرك مصدر هياجه من أي عين من تلك العيون . على انني من اثني عشر عاما وأنا جريح فلم تحولين بيني وبين الأعتراض على هذه التضحية العقيمة . ثم أني اقسم مائة مرة انك لا تحبين هذا الرجل ذلك الحب القوي الذي يمتزج بالاجسام والأرواح فيهزها ويرجها

وعند ذلك تضطرب وتطلب اليه أن يكف ، فيقول من جديد انني اقرأ هذا في عينيك فلمَ تغمضينهما . نعم لقد اعادت اليك الحياة تلك الشعلة التي كادت تنطفيء جذوتها وعاد قلبك يشعر بتلك النشوة التي حيل بينه وبينها انني لأحسها فيك فانكري ما استطعت وقولي انك سعيدة ما دامت طبيعتك نفسها تخونك .

وكان سافيل قد وصل معها في حديثه الى حد خطير فقالت له ليكن ما تقول فماذا يكون بعد ؟

قال يكون انك لن تعصي مشاعرك فصاحت سائلة أتريد ان اتخلى عن زوجي فقال وما يربطك الآن به ، أحب الأمومة وليس له منك ولد ام واجب الزوجة وقد كان يعلم انك لا تحبينه . الا ترين أن لك من كل هذا سبباً تكونين به في حل من تلك القيود البالية ثم أنسيت انك مخلوقة لك حق أيضاً في السعادة . الا ترين كيف أن الصدف ارادت ان تجمعني بك ثانياً فدفعتني الى هذه القرية التي لم اكن اعرفها حتى رأيتك وسألت عنك . انني انا نسيبك في الحياة وما كان هو الا الحائل دون هذا النصيب المكتوب لك ولي . فانا انما استرد حقي لأعبده ولأخرجه الى نورالسعادة الحقيقيه (يضغط على يديها) لا تردي هذا المستقبل الذي يمد كفه اليك والذي لا يأتي الا مرة واحدة ساعتها الآن فربما اوصد بابه من دونك ودوني الى الأبد

وهنا يخور عزمها ولكنها تصرخ فيه : صه ايها الرجل . فيقول كلا كلا . لأني احبك ولأني أريد أن تكوني لي . انك زوجتي انا . قولي نعم . قولي

ولكنها تعود فتصرخ فيه بأشد من المرة الاولى لا . لا . ابداً . اخرج من هنا أيها الرجل فيضطر الى الخروج رويداً رويداً بينما زوجها داخل يتلمس مكانها

لويريه — هل انصرف الزائر يا جرمين

جرمين — نعم يا صديقي

لويريه — من هذا الرجل (وهو يقترب منها)

جرمين — (بعد لحظة) ... اقبل

وهنا يضطرب ويهتز وهو يبحث عن يدها فيضع عليها قبلة خالصة حارة

جرمين — ماذا جرى لك يا عزيزي

لويريه — لو انك كذبتني يا جرمين لـكنت قتلت نفسي

جرمين — أعرفته أذن ؟

لويريه — نعم عرفته من صوته

جرمين — ولـكنك سألتني عنه

لويريه — نعم . غير أني سمعت حركة طردك له (يجذبها اليه)
أرأيت كما قلت لك كيف أن عماي كان من اكبر اسباب
حسن حظي

جرمين — (بعد فترة سكوت تقابل حنانه بمثله تتجه الى الـكراسات)
لقد وقفنا عند تمرين بوستار

لويريه — (وهو يحدق فيها عينيه الفارغتين) نعم لنعد الى الواجب
يا جرمين !

العزوبة

(ايهما اصل العزوبة ام الزواج . اعتراض على العقد . المرأة مصنع للنسل .
احد ملوك العجم وشيخ . العزوبة مقياس اخلاق الأمة ـ قبر من البللور ـ الراهب)

الفعل عزب على وزان فقد عزبة وعزوبة بضم العين فيهما ويقال فيمن لا أهل له واسم الفاعل منه عزب بفتحتين وليس فيه أعزب اما المرأة فعزباء والظاهر في العزوبة أنها أصل طرأ الزواج عليه فقيده ولـكني أرى

الزواج اصلا سنته الطبيعة وفقط لا يلزم وجوبه الا حين يبلغ الطفل سن الحلم او سناً قريبة منه .

فالعزوبة من هذه الناحية خروج عن الاصل الذي ترجع الحكمة البشرية فيه الى استمرار التناسل .

وكثيراً مااعترض بعض الناس على هذه الحكمة ذاهبين الى أن العقد قيد لا محل له اذا كان الغرض من الزواج النسل لأن اختلاط الذكر بالأنثى في ذاته يؤدي الى هذه الغاية وهو اعتراض لاغبار عليه في الظاهر ولكنه ضعيف واهٍ لأنه اذا أبيح هذا الاختلاط فلن يكون الدافع اليه الا أحد أمرين : اما شهوة الكسب او اشباع الشهوة

واذا فهمنا ذلك فهمنا أيضاً أن المرأة متى حملت اضطرت الى البقاء تسعة اشهر حتى تضع حملها . وهي فى هذه الفترة الطويلة تتعرض للاسقام والاوجاع وتقلب المزاج والدوار والقيء مما يكون صارفاً اياها عن كل شيء آخر فضلا عن تكور بطنها وانتفاخها فلا يقربها الرجل ولا يقبل عليها

وما دام أن الحمل على هذه الصورة يقوم عقبة فى سبيل تحقيق الطرفين السالفين فأنها تسعى الى التخلص منه على أية صورة . هذا الاثم الذى نلمس اثره فى كثير من الاحيان بل ان من النساء من يلجأن الى عمليات جراحية تشل بها وظيفة العضو الخاص بالحمل .

على ان في تلك الاباحة خطراً يجب ان يحسب له حساب فقد تؤدي الى تزاحم الناس على امرأة واحدة او اكثر فيتحاربون ويتقاتلون حيث تسود الفوضى لأن طبيعة البشر الجامحة الثائرة واحدة في كل الاحوال وانا انرى

كثيراً من الفاجرين يمدون عيونهم الى من هي محصنة من النساء فما بالك والأمر مباح ؟

بل ماذا يكون من امر اللواتي تقدمن في السن ؟

ثم ان الطبيعة التي جعلت من المرأة مصنعاً للنسل غرست في نفسها الحب والحنو ليكونا رباطا وثيقا يربطها بأولادها فتنصرف الى العناية بهم والدفاع عنهم حتى ينموا ويشبوا (١)

ولذلك لم يكن الغرض من الزواج ان تصبح الفتاة زوجة فحسب ولكن أما لان هناك خلافا بين علماء الاجتماع يدور حول ذلك لم يرق في عين المفكر الفرنسي العصري أميل فاجيه فقال « أن ألد عدو للزواج عندنا هو نفس مدنيتنا » لانها تقضي بأن لا يتزوج الرجل الا في السن التي تضعف عندها قوة الاخصاب وهو على كل حال انما يقصد معالجة الحالة الاجتماعية التي هبطت بالنسل في فرنسا الى نسبة مزعجة . ولم يكن غرض الطبيعة من

---

(١) مر احد ملوك العجم بشيخ يعمل في ارض فقال له هلا ادلجت فيكون من ذلك ما يكفيك قال ادلجت ولكن القضاء لم يدلج فطلب اليه أن يكتم امره معه حتى يراه ثم انصرف وسأل وزيره عن معنى ما اجابه به الشيخ فلم يدر وأخذ هو ايضاً يسأل الناس حتى بلغ به المطاف الى ذلك الشيخ ولكنه امسك عن الجواب محافظة على وعده للملك الا انه أعطاه عشرة آلاف درهم فقال له اراد لم لم تتزوج في شبابك فقال فعلت ولكن الزمان لم يسعدني بولد يكفيني مؤونة عملي الشاق في شيخوخي . ولما ابلغ الوزير الامر للملك استدعى اليه الشيخ وعاتبه على اخلاف وعده فاجابه انى ما اخلفته يا مولاي وقد رأيتك عشرة آلاف مرة . وكان على كل درهم صورة الملك واسمه فاعجب بجوابه وسامحه له

تركيز شهوة الميل في الرجل والمرأة ان يكون هذا مبرراً لمجرد الاختلاط بل لتكون بين النوعين حلقة اتصال دائمة

وربما كان البحث فى العزوبة وأسبابها خير مقياس لتقدير اخلاق كل أمة فاذا انصرف شبانها عن الزواج دل هذا على مبلغ انحطاط تلك الاخلاق .

نعم ان الفتى العزب لا يعدم مكانا يسكنه او مطعما يغذوه غير شاعر بالتبعة التي تنشأ عن تكاليف البيت ولا نادم على لذة الاولاد وهو لم يذقها ولكن الزواج كما قلنا اصل مسنون وهو غاية كل شخص يوجهه اليها تكوينه وطبيعته ولا سيما ان لقب « رب البيت » من انبل الالقاب فمن ذا الذي يتقدم للحصول عليه

ولكن الواقع أن علة البعد عن الزواج عندنا هي الاضطراب الذي طرأ على أحوالنا الاجتماعية فاخذ سوسه ينخر فى كيان الحياء والاخلاق وانك اينما التفت لا تجد الاسر في الوقت الحاضر جارية خلف الحكمة التي شرع الزواج من أجلها وهي تخير النطفة بتخير الزوج سليما عف الثوب كامل الصفات ولو كان فقيراً لان الاخلاق الفاضلة في ذاتها من اكبر رؤوس الاموال ولكنها جعلت قاعدة اختيارها غير ذلك من اعراض الحياة الزائلة ومظاهرها الكاذبة فما من رجل اراد ان ينخرط في سلك احدى الاسر الا تساءلت عن مركزه وثروته فان كان ذا جاه وكان غنياً اقبلت عليه واذا كان فقيراً نبذته وان كان ملكا من السماء .

وقد توجد اسباب كثيرة غير هذه تبعد بالزواج عن الغاية التي سن لها ولكن ارتباطاً كهذا لا يقوم الا على المصلحة والجشع وحب المظهر بغير بحث عن مكان الفضيلة لا دوام له ولا يتحقق معه دوام العمران حتى

اننا لنرى الطلاق تجري به الالسنة في كل وقت بغير حد .

اما السبب الأقوى على ما يذهب اليه ظني في نفور الفتيان من الزواج وبعدهم عنه فيرجع الى تسرب الشك الى اذهانهم لما يسمعونه من تفشي الفساد بين بعض الطبقات على ان العزب مهما كان من أمره فأنه يشعر دائماً في حياته بشيء ينقصها هو الزوجة فهما كشقي المقص لا يرجى من ايهما وحده نفع . ولكنه مع ذلك يخشاها لما مر بك من الأسباب.

ولقد اجتاز نساء فرنسا نفس الدور الذي نجتازه الآن حتى ان اسكندر دوماس الصغير في سنة ١٨٦٧ اي من نحو اكثر من نصف قرن افاض في ذلك في مقدمة طويلة لبعض اسفاره نوجز هنا منها ما يختص بالسبب الذي كان يحمل الشبان وقتئذ على الفرار من وجه الزواج :

لنفرض اني تزوجت فما دمت لا اكسب من امرأتي غير جسمها الذي لا اعرفه الا نصف معرفة بسبب اشتغالها بزينتها اليومية والذي بالعكس يعرفه كل الناس اكثر مني فأني اجد ثمنها غالياً علي .

اننا نسعى الى الزواج في الحقيقة لكي نجد عنده الراحة والاولاد والكرامة والحب

اما الراحة فأبعد من ان تلمسها ايدينا ونحن مكلفون أن نرافق زوجاتنا دائماً الى كل مكان من اماكن الرياضة واللهو

وأما الاولاد فأين هو الوقت الذي نجد عنده الفرصة للحصول عليهم والسعادة بهم

واما الكرامة فأين هي من امرأة تعرى الى خصرها ولا ترتدي ثوبها الا على يد رجل .

واما الحب فلا تسلني عنه ما دام ان أساسه تلك الفضائل التي لا وجود لها

وما دام ان امرأتي تصبح لكل الناس الا لي فخير لي انا ايضاً أن آخذ نساء كل الناس خصوصاً وأنهن لا تكلفنني عشر معشار ما اضطر الى صرفه وانا متزوج ..»

نعم اننا لم يصل بنا الفساد الى ذلك الحد الذي وصلت اليه فرنسا من ثمان وخمسين سنة ولكن ألا يجب ان نأخذ عدتنا من الآن حتى لا نقع في مثله ؟

قبر من البللور

اخذت انا وصديق لي نبحث له عن دار يسكنها حتى اذا جنّ الليل ارجأنا البحث الى الغد لولا أن افهمنا المرشد بأن على مقربة منا داراً أخرى وانه اذا كان قد اقبل الظلام فلا بأس من الاستضاءة بشموع

ولقد صعدنا فاذا حجراتها مزينة السقوف والجدران اما ارضها فمن الخشب الا ان التراب كان فوقها كثيفاً تغوص اقدامنا فيه مما دل على انها ظلت خالية زمناً غير قليل

وكنت انا وصديقي نمر في تلك الحجرات منفردين فسمعت وقع اقدام مسرعة الى جهتي وكان صديقي مضطرباً ترتجف يده ولسان الشمعة يهتز يميناً وشمالا ودخانها يرسم عموداً حلزونياً صاعداً الى السقف

وعندئذ صاح : أن عفريتاً يسكن هذه الدار فغلب عليّ الضحك

لولا أنه جذبني الى غرفة قريبة قائلا انظر بنفسك

وكان في احدى زوايا المكان رف مثلث الشكل التفتني اليه وهو يقول: الا ترى عينه تحدق فينا من فوقه

اما الغرفة فكانت مستطيلة مظلمة عند هذا الرف ثم يلي ذلك ظلام خفيف الى ان ينتهي للهالتين المحيطتين بنا من ضوء الشمعتين وهما تهتزان كلما تحرك الهواء ونحن في وسطهما نحكي راقصتين يتحرك طرف ردائهما كلما رقصتا ولكننا كنا نرقص من الخوف

نعم انني جمد دمي ووقف شعر رأسي وكأن طربوشي قد ارتفع قليلا في الهواء فتراجعت اذ رأيت شعاعا قوياً يخرج من فوق ذلك الرف الى جهتي

ولقد كان اضطرابي أنا أيضاً مشجعا صديقي فيما اعتقد فأمسك بي وامسكت به وأخذنا نمد شمعتينا الى الرف كأنهما سلاحان ندفع بهما عنا شر ذلك العفريت حتى اذ اقتربنا منه لمحنا من فوقه شيئاً أحمر على شكل علبة اسطوانية نخطر لي أن أتناولها وأنا مع ذلك ارتجف فاذا هي وعاء من البللور مكسو بقماش احمر اللون علاه تراب غزير . وقد رأيت في أحد جوانبه ثقباً بسعة المليم فأدركت عند ذلك سر الشعاع لانه لم يكن غير ضوء الشموع ينعكس فيه ثم يرتد الينا

ولكن كم كانت دهشتي حين نزعت عن الوعاء ذلك الكيس لانني ابصرت به سائلا كالماء يسبح فيه شيء اشبه بلعبة بشرية من المطاط وما كانت غير جنين في الشهر الرابع او الخامس لأن شعر رأسه كان أثره ظاهراً ولان اظافره كانت على شكل لطع من اغشية بيضاء . والجنين في مثل هذا

الشهر يكون له قلب تسمع امه دقاته على رأي الاطباء وله حق الارث على رأي الفقهاء .

ولكن بمَ نفسر وجود هذا الجنين في ذلك المكان ؛

أكان الساكن في الدار مولدة او طبيباً . أم هذا الجنين ولد سيدة حرمت لذة البنين فلما اجهضت به أودعته هذا المكان لمعزّته عندها . أمهو ولد غير شرعي فأعدّ له هذا القبر البللوري وقد كان رباط قلبين وثمرة حبين

نعم كانت كل هذه الخواطر تمر برأسي وتتمثل لعيني وانا حيران لا اهتدي حتى وقع بصري على قصاصة من الورق غائرة في التراب عند قدمي فلما تناولتها اذا بها خطاب حوى هذه الكلمات :

عزيزتي

انك اخلفت اليوم معك موعدي وأنا اقدر ما سيكون عليه موقفك عند الساعة التي أعتدت ان تنتظريني فيها فانك بدلا من ان تريني مقبلا عليك عندها لا تجدين مني غير هذه السطور . وكم ستذرفين لديها من سخين الدمع وتصعدين من دفين الزفرات الحارة ولكن لكل شيء حدا ونهاية ياعزيزتي فهل أخذت امانا على الايام ان مثل هذا الحب يدوم الى ما شاء الله .

على اننا ما اجتمعنا هنا كل تلك الايام التي كانت شفتاك عندها تسقياني من شراب الحب الشهي الاّ ولي من قسوة اهلي دافع كالذى كان لك من قسوة اهلك وقد أرادوا ان يزوجوك من ابن عمك كما أراد أهلي ان يزوجوني بابنة عمي وما كنت لأحبها ولا كنت لتحبيه

اما الآن فقد هددوني بأني اذا لم اكن عند النصيب الذي ارادوه لي اخرجوني من الوقف وحرموني من كل شيء وتبرأوا مني وتخلوا عني وانت تعلمين أنهم ارتكانا على تلك الثروة اهملوا تربيتي وفرطوا في تعليمي حتى كنت استغني بعلمي عنهم فأحيا معك حياة حرة مستقلة

وأني ليخيل الي الان انك حين تقع عيناك على هذه الكلمات تمطرينني صيباً من اللعنات وترمينني بالتقلب وخيانة العهد

ولكنك على كل حال التي جررتني الى هذا الموقف معك وما كنت لأعرفك ولا كان يخطر ببالي أمرك فاذكري اول يوم كنت فيه تحت نافذتك انتظر الترام فلما وقع نظرك عليّ أشرت اشارة فهمت منها ان انظرك فانتظرت. وهكذا لم تمض عشر دقائق حتى خرجت فاتبعتك واخيراً جمعتني واياك عربة قضبنا بها في طريق الاهرام ساعتين من اشهى الساعات بين عليل الهواء وغليل الهوى

ولعلك لا تسيئين الظن بي بعد ذلك الى حد ان تحملي موقفي معك اليوم على محاولتي التخلص من تبعة الجنين الذي تضمه احشاؤك .

ومع ذلك فانه حد بت يمكنك ان تتخلصي منه او اذا وضعته ان تودعيه بعض الملاجيء .

واخيراً اقسم لك انني لولا ماذكرت لك من أمر أهلي لما تركتك وانت صورة من صور اللطف والدعة وخفة الروح فاصفحي عني واسدلي ستار المغفرة على ذلك الماضي ...

أمضاء

وكان صديقي في خلال ذلك يدور في المنزل يتفقده وقد زال عنه الخوف حتى اذا عاد سألني عما في تلك الرسالة فدفعت بها اليه وانا أفكر في ماحوته وفيما أصبحنا اليه من أمور الاخلاق وامثال هذه الحادثة كثير حتى كانت من اكبر الاسباب لانشاء تلك الملاجيء

على ان الجنين كان لايزال في يدي فنظرت اليه نظرة انحدر على أثرها دمعي . وما خطر لي أن أمه تعمدت ان تتخلص منه ولكنها تغير مزاجها على اثر ذلك الخطاب واضطربت نفسها فاجهضت به رغماً منها وما كانت تنتظر من حبيب قلبها مثل تلك المفاجأة القاتلة حتى فركت تلك الرسالة باصابعها المتخشبة

ولقد انحدر دمعي على أثر تلك النظرة لأن هذا المخلوق الصغير ما اجترح معصية ولا ارتكب ذنباً حتى يحرم من نعيم الحياة

ولقد خيل الي أنه لبث طويلا في ظلام ذلك الركن المقفر وقد قضى الحظ الشقي أن يلف في قماط من ظلمات الفناء الابدي .

نعم لبث كل ذلك الزمن في مكانه هادئاً ساكتاً صامتاً كأنه حرز من احراز المصريين القدماء لا يخيفه ظلام هذا الركن ولافراغ تلك الدار لانه لم يعد له فؤاد يتأثر بمشاعر الألم او السرور

وعند ذلك رفعته الى عيني مرة أخرى فاذا بعينيه الصغيرتين مفتوحتين وفراغ فمه باديا بين شفتيه فقلت لنفسي يالله ما الذي تنتظره هاتان العينان وقد فر منهما النور وما الذي يلقيه على سمع الزمان ذلك الفم وقد عجم لسان كليهما السكوت

ثم لو ان يد الصدفة لم تمتد الى انفاسه اما كان الآن في الرابعة او

الخامسة من عمره يملأ فراغ هـذه الدار صياحاً وحركة ويملأ عين أمه سروراً ونوراً والكانت عيناه الهادئتان الذابلتان تتنقلان بين ضوء الشمس الذهبي ونور القمر الفضي ولكنه ماكان مع هذا يفلت من قسوة المجتمع واحتقار الناس لانه ولد غير شرعي فيهيم على وجهه بائساً شريداً في حين اخوه الشرعي ... مدلل منعم

واذا كانت امه القت به في الظلام عند مفارق الطرق وكان من حظه ان يؤخذ به الى بعض الملاجيء فهل كان يجد عندها ذلك الثدي الذي يجري الحنو في لبنه وذلك الصدر الذى غرست الطبيعة فيه حب الام وشفقتها وهو بعد ذلك اذا شب يشعر دائماً بأنه ينقصه شيء هو أبواه ...

لذلك عندما انصرفنا اشفقت على هذا الجنين وما طلب أن يخرج الى نور هذه الحياة او ظلمتها فأخذته معي وانا في الطريق اضمه الى صدري كأنني أضم ولدي وهو في قبره الشفيف هادىء منقطع عن هذا العالم وكأن عينيه تنظر اليه نظرة متهكم ساخر

ولما بلغت منزلي كان التعب قد فككني وأنهكني فوضعته على مائدة قريبة من سريري ولكني ماكان يملكني النوم حتى اخذت اسمع في حلمي صراخاً ضعيفاً فالتفت الى جهة فاذا به قد وثب الى الارض من وعائه وهو يعدو ومن خلفه كف غليظة تحاول أن تختطفه وعند ذلك انتبهت مذعوراً وبدلا من اراه على تلك المائدة ابصرت بالوعاء مهشما فانحنيت افتش عنه ولكني وجدت تحت سريري قطاً غليظاً كانت لا تزال في فمه احدى قدميه

ومن ذلك اليوم وانا ارتعب لانني كلما تلاقى نظري بذلك القط شعرت بذلك الشعاع المخيف يخرج من عينيه ...

الراهب [1]

خطر لي مرة ان اقصد مع بعض الرفاق ذلك التل القديم الذي تكسوه الاشجار الباسقه وسط السهل الفسيح بين (كان) (ونابول) لنرى ذلك الشيخ المتعبد

وعند عودتنا تجاذبنا احاديث اولئك الزهاد المنقطعين عن عباد الله وعن بيوته وكانوا عديدين في الزمن الغابر

وبينما نحن نحاول تكشف خفايا ما يرتبط بذلك من الاسباب وطبيعة الاحزان والهموم التي تدفعهم الى اختيار هذه العزلة صاح أحدنا : لقد عرفت من هذه الطائفة رجلا وأمرأة .

اما المرأة فلا تزال على قيد الحياة تسكن مع خادمة لها قمة جبل مقفر على مسافة عشرين كيلو متراً من المدينة . قصدتهـا يوما فدهشت لأدبها ووداعتهـا ولـكنني لا أذكر من أمرها شيئاً . اما الرجل فأليكم حديثه الغريب المرعب :

اقصدوا مرة جبل الثعابين تجدوا عنده صومعة قديمة يعش فيها هذا الراهب من اثنتي عشرة سنة

رلقد كنت سمعت به فتاقت نفسي اليه واذلك قمت على فرس في صبيحة يوم من ايام شهر مارس فبلغت تزلا تركت عنده مطيتي ثم اخذت انسلق ذلك الىل المخروطي ولا يقل ارتفاعـه عن مئتي متر وقد كسته الحشائش ثوبا سندسيا زاهيا .

« ١ » لموباسان

اما الارض فحجرية ينزلق عليها الحصى طويلا كأنه حيات تظهر وتختفي في العشب حتى سمي جبل الثعابين

وقد ترى الزواحف حقيقة تخرج في بعض الايام من بين قدميك وأنت في صعودك تلفحك حرارة الشمس . وهي كثيرة تعترض الصاعد في سيره ولكن لا تؤذيه

ولما بلغت القمة ظهرت لي حيطان الصومعة على مقربة منها رجل جالس فوق حجر وهو لا يتجاوز الخامسة والاربعين من العمر اسود اللحية وان كان شعر رأسه قد ابيض وكان على فخذه هرة يداعبها

وبعد ان درت حول المكان وقد سد جانب منه بفروع الاغصان والقش والحشائش والجص ظهرت الى جانب ذلك الشيخ

اما منظر الطبيعة من تلك الجهة فجميل يملأ العين اذ كان على يميني جبل الاسترل بقممه المتشعبة ثم البحر المترامي الاطراف وهو يمتد الى سواحل ايطاليا البعيدة ورؤوسه العديدة مواجهة لجزر (ايرين) التي لاستوائها وخضرتها كانت تحكي أبسطة طافية فوق سطح الماء وقد قام عند طرفها القريب قصر ذو بروج مسننة تنطحها الامواج .

اما الشاطىء الذي يتحكم فيه هذا القصر فمكسو بالعشب الاخضر وقد قامت فوق اطرافه البعيدة كبيض لا يحصى عديدة سلسلة لا تنتهي من القري والمنازل الصغيرة البيضاء وهي تطل من بين الاشجار والى جانبها جبال الالب التي علاها الثلج فلاح كقلنسوة كبيرة من القطن المندوف

كان المنظر بلا ريب انيقا جميلا ولكن الرجل كان يجده مملا وهو لا يرى سواه كل يوم

وعلى كل حال فقد سرني انه رجل يفهم ويشعر ولكنني مع ذلك لم أطل مقامي معه في ذلك اليوم مكتفياً باستطلاع شكل وحشبته ومبلغ ثقوره قانعا بما وصلت اليه وهو معاشرة الناس وقد كثرت شكوكه وتزاحمت عليه أوهامه فكره نفسه كما كره غيره ولذلك غادرته بعد نصف ساعة الا اني زرته بعد اسبوع ثم في الاسبوع الذي يليه وهكذا حتى اصبحنا خليلين

وقد خطر لي مساء يوم من الأيام ان آخذ معي طعاما ونبيذاً واقصده وكانت ليلة من ليالي الجنوب عاطرة وقد اشتهرت تلك البلاد بالزهور كما اشتهرت بلاد الشمال بالقمح ولذلك كثرت فيها مصانع الاعطار

وكانت ليلة من تلك الليالي هب النسيم العليل فيها يحمل في أردانه عبير اشجار البرتقال الكثيرة وقد ملأت الحدائق وأطراف الوديان. ذلك النسيم العطر الذي لا تشمه نفس الا اضطربت وترنحت حتى انها لتعيد الى الشيوخ نشوة الصبا وذكرى الحب

ولقد استقبلني صديقي بفرح بادٍ ولم يمتنع عن مقاسمتي طعامي وقد ناولته كاسا من النبيذ وكان قد هجره فدبت فيه النشوة واخذ يشرح لي شيئاً من ماضيه فعلمت انه من سكان باريس وقد عاش فيها اعزب فسألته فجأة : اذن ماالذي رمى بك الى هذا المكان المنقطع؟ فقال :

لأن الحياة صدمتني صدمة لا اظن ان غيري صدم بمثلها انني لن اخفي عنك مصابي فربما عذرتني فيه وخففت من حمله الثقيل عني . نعم انني كتمته على كل الناس ولكنني اذكره لك الآن لاعرف كيف يكون حكم غيري علي بسببه

لقد نشأت في باريس وتعلمت فيها وانا ارتع في ثروة خلفها لي أقاربي

تكفيني لأعيش عيشة شاب عزب سعيد

ولقد عكفت على الملاذ من صباي اذ كنت حراً وبغير أهل فعقدت النية على عدم الزواج وهكذا كنت أقضي ثلاثة أشهر مع واحدة وستة مع أخرى وسنة وحدي ولكن بغير أن استغني مع ذلك عن التسقط على بعض الفتيات

هذه الحياة على بساطتها وخلوها من كل معنى كانت تلائم مزاجي المطبوع على حب التنقل فكنت أقضي ساعاتي في الطرق ودور التمثيل والمشارب مع أن لي منزلا جميلا

نعم كنت كغيري من الذين يرون في باريس بحراً عظيما فيتركون أنفسهم تطفو على سطحه كسدادات الفلين

يرون في جدران باريس جدران العالم كله فلا يهتمون لشيء ولا تنصرف أميالهم الى شيء

على مثل ذلك انقضت حياتي من العشرين الى الاربعين بطيئة سريعة في آن واحد بغير أن يتخللها من الحوادث ما يلفت النظر اليها

نعم ما أسرع كر السنين في باريس على حالة واحدة وهي تولي من خلفنا غير تاركة في نفوسنا ذكرى

تلك السنين الزاهية الفارغة الطويلة القصيرة كانت تمر والعزب فيها لا هم له الا أن يشرب ويأكل ويضحك لغير سبب وشفتاه مندفعتان الى كل مالذ وطاب وبينما هو شاب اذا به شيخ وهو مع ذلك لم يعربد بقدر ماعربد سواه غير مرتبط بأحد ولا مستقر بمكان وحيداً بعيداً عن الاهل والرفاق والزوجة والاولاد

على مثل هذا بلغت أنا ايضاً سن الاربعين بغير أن اشعر فخطر لي أن احتفل باليوم الذي بلغت فيه هذه السن ولكني لم أر لذلك خيرا من غذاء طيب في مطعم شهير وحيداً بطبيعة الحال .

ولقد ترددت فيما أفعله بعد ذلك ولكن خطر لي أن اقصد بعض الملاعب ثم مالت نفسي للحج الى الحي اللاتيني الذي طالما آواني حين كنت أدرس الحقوق ثم دخلت على غير قصد محلا من محال الجعة خادماته فتيات

وكانت الفتاة المخصصة لمائدتي صبية جميلة ضاحكة السن فعرضت عليها أن تشرب معي فلبت وهي تنظر اليّ بتلك النظرات التي اعتادتها عيناها مفكرة طبعاً في أخلاق ذلك الرجل الذي جمعتها به الصدفة

كانت فتاة بيضاء موردة اللون صبوحة عبلة فأخذت أنفخ فيها من روح مداعبتي وغزلي ثم خطر لي فجأة أن آخذها معي .... وحجتي دائماً ذلك الاحتفال

ويظهر انني كنت موفقاً لأنها لم يكن لها عمل مستديم من اسبوعين كما ذكرت لي ولذلك وعدتني بالاجتماع بي في مطعم (الهول) بعد ان تفرغ من عملها

ولكني خشيت أن تتخلف عني فلبثت انتظرها وكلما انتقلت من مائدة الى أخرى فكرت في هل ارتبط معها بعقد لزمن جديد

ولكن معذرة ياصاحبي في كل هذا البيان الذي ربما كان بعيداً عن مواطن الادب لأن الذين لم يذوقوا طعم الحب الصحيح يسقطون على مثل أولئك النسوة كما يسقطون عند الجزارين على ضلع فلا ينصرف همهم على

كل حال الا الى نوع اللحم

ولقد كنت حريصاً على كرامة منزلي فرافقتها الى منزلها وهو منزل ضيق في الطابق الخامس يناسب مثلها من الفتيات وهو على بساطته غير قذر

في هذا المسكن قضيت ساعتين طويلتين سعيدتين مع هذه الفتاة التي تسيل لطفا ورشاقة وأدبا

وبعد ان أخذت منها موعداً ثانيا وأنا متهيء للرحيل اقتربت من المائدة لأضع عليها تذكاراً جرت به العادة فلاح لي فوقها ساعة ذات رقاص وآنية زهر وصورتان احداهما قديمة وهي من ذلك النوع المأخوذ فوق الزجاج على طريقة (داجير) .

ولقد انحنيت بطريق المصادفة على تلك الصورة ولكن سرعان ما اختلط عليّ عقلي لانى رأيت أول صورة لي وأنا بالحي اللاتيني

نعم كانت صورتي بعينها فملكني الضحك لغرابة الامر ومفاجأته ولما سألتها من هذا الرجل قالت أبي . . . الذي لا أعرفه وقد تركت لي أمي صورته وأوصتني بالمحافظة عليها فربما كان لي عونا يوما من الايام . . . ثم ترددت قليلا ولكنها أخذت تضحك قائلة انها لا تظنه يعود ليعترف بأنها ابنته . . !

ولا تسل عن قلبي وقتئذ وقد أخذ يدق دقات متوالية سريعة كأنه فرس جامحة فأعدت الصورة الى مكانها ووضعت معها وأنا ذاهل ورقتين بمائة فرنك كانتا معي ثم أسرعت الى السلم وأنا اصيح الى مابعد . الى الملتقى وهي تجيبني الثلاثاء المقبل لا تنس وهكذا أخذت اتلمس درجات السلم المظلم واحدة فواحدة لأنزل

وكانت السماء ممطرة فسرت بخطى واسعة اقصد اي شارع يصادفني وانا اسير على غير هدى هائماً على وجهي فاقد الصواب مفكك الخاطر اجهد نفسي في نبش ما اندفن من حوادث الماضي وانا لا اظن ما صادفني الا حلما ولكنني تذكرت فجأة فتاة كانت كتبت لي قبل قطع علاقتي معها تقول انها حبلى مني وذكرت انني مزقت رسالتها ثم انسدل ستار النسيان

وربما كان يجب ان ارى الصورة الاخرى ولكني ما كنت على كل حال لأعرفها وقد كانت على ماظهر لي صورة امرأة عجوز

وبينما تتناولني هذه الخواطر وجدت نفسي عند شاطىء النهر وكان هناك مقعد فجلست والسماء لا تزال تهطل والناس يمرون تحت مظلاتهم فانكشفت عندئذ الحياة لعيني وتجلت امامي قبيحة مرذولة مملوءة بالشرور والآثام والمساويء والفضائح والشقاء . ثم عادت الى خاطري تلك الصورة فصحت ياويلي اتكون هـذه الفتاة ابنتي . ايجوز أن اجلس منها مجلسي من خليلتي وهي ولدي وانا ابوها وهل هـذه باريس الواسعة المظلمة الكئيبة الملطخة بالاوحال وما حوته من تلك المنازل اللاتى يمثل هـذه المخزيات . بالزنا والدعارة والاولاد المنهوبين المغصوبين

ثم تذكرت تلك القناطر المأمومة بالخونة والفجار ولكنني على غير قصد وبلا علم ارتكبت من المعصية فوق ما يرتكبه كل أولئك الناس لانني افترشت ابنتي

وعند ذلك كدت أسقط في النهر وقد شارفت على الجنون فاخذت أهيم في الطرقات الى الصباح حيث عدت الى منزلي أفكر في أمري

وبعد أن استوثقت من صحة ما روته لي تلك الفتاة وهبتها كل ثروتي

غير أن تعلم أنها مني ثم آليت على نفسي أن افر من وجه هذا العالم وأنقطع الى آخر أيامى فوق هذا الجبل

رد على كتاب (١)

أخي الصغير

لقد قرأت رسالتك بإمعان بل لقد مرت على سمعي وعيني ثلاث مرات مرة حين تلوتها عليّ ومرتين راجعتها فيهما بعد ان ارسلت بها الي .

ولست أرى على كل حال ان اخوض في كل ماتضمنته من الابحاث لأن منها ما هو جدير بالاعجاب ومنها ماهو جدير ايضاً بالمناقشة . ولكني اردت ان اكتب لك عن السبب الذي دفع بك الى كل هذا فقد رأيتك في رسالتك رياضياً منطيقاً تدخل الى نظرياتك من باب الارقام والعقل والوزن فتبوب ما تريد ان تذكر وتجعل له فصولا واقساماً وفروعاً وحواشي غير انك بعد ذلك انتقلت من خشونة التفهم الى نعومة الارشاد حتى انتهى بك المطاف الى اليأس فاضطررت ان تتناول اخيراً تلك العقدة عقدة العقد في رأيك فظهرت من خلال كل هذا الصورة الحقيقية التي اصبحت لك الآن

ومن الغريب انك عند هذه الصورة نسيت غيرها من باقي الصور التي ذكرتها من قبل ولم يبق في نفساك الا شيء واحد هو نفسك ولعلني لم اخطىء لانك وضعت حب النفس في اول القائمة من تشريعك الجديد .

---

(١) كتب لي بعض أصدقائى في شأن سيدة من المحصنات فرأيت أن أرصد هنا ردى عليه لتعلقه بموضوع هذا الكتاب

على انني لاافهم لماذا انت متشبث بالموت والى جانبك امك الكريمة التي تقول انك تحبها وتوازن بين حبها وبين حب تلك الاخرى ...

اذا كنت حقيقة تعبد امك فاشفق عليها ودع هذيان هذه الحمى الخطيرة او اشفق على نفسك من طريق هذا الاشفاق ما دام ان حب النفس قد غمرك جوه .

ان عمى الحب يا اخي هو الذي طوح بك الى هذا الحد المحفوف بالمكاره ولم يكن ايضا غير حب النفس وهو لايقوم اساسه الا على الاثرة التي لا يدفعها حكم العقل وانت في مثل هذه الحال . انه ليس من السهل ان تكون هدفا لسهمين من قلبك وحبك نفسك ويكون لرجاحة العقل اثر فيك

هذا هو الذي زعزعك وقضى على سكينتك وشرد عقلك وفكك خواطرك وغشى على بصيرتك وبصرك فلم تعد تسمع او ترى والحب يعمي ويصم على أني اخطأت فانك لا زلت تسمع ولكن شيئاً واحداً هو صوتها او صوت استغاثتها كما ذكرت

ولو انك كنت بعيداً عن الغرض منزهاً عن الغاية لحمدت لك موقفك معها ولما وجهت اليك شيئاً من عتبي لانك عندئذ تكون حقيقة من الناصحين المخلصين ولكنك تعطف عليها وانت توجع لنفسك وتطلب الرحمة لها وانت تشكو مايقاسيه قلبك من العذاب فانظر اذن كيف اصبح حب النفس يلهب مشاعرك بعد ان تغلغل حبها فيك .

اما اذا كنت حين رضيت نفسك حكمي اردت ان اقف معك ومعها موقف الحكم المنصف فاعلم انك لو لم تتحكم فيك ثورة الهوى لهداك عقلك الرزين ونظرك البعيد وفهمك الدقيق في هذا الموقف الذي وقفته ولكنك

اصبحت منه في لجة سحيقة تحاول ان تخرج منها آمناً على نفسك مطمئنا على تلك اللؤلؤة ولو بأحقر الاسباب فأين اهلك واين وطنك واين الانسانية الذين وقفت نفسك عليهم وكرست حياتك لاسعادهم كما ذكرت ؟ انك بعتهم جميعاً بشيء واحد هو تلك اللؤلؤة التي سبقك اليها صياد من قبلك بل انك قد هان عليك ان تبيعهم لمشتري بثمنهم حياتك أنت وهكذا أينما توجهت لا أراني اقف بك الا عند حب النفس

ومن الغريب أن تضع امام اعيني صورة موحشة من زوجها يخيل الى عندها أنه وحش في صورة انسان ومع ذلك اذا صحت هذه الصورة فما لك بهذا الرجل وبامرأته ولم تتدخل في شأنه معها وشأنها معه

واذا كانت حقيقة شقية به فهل هي وحدها الشقية تحت سماء هذا الكون . أليس في هذا العالم الفسيح غيرها من شقاءهم فوق شقائها واذن فلمَ انصرفت عنهم اليها ولمَ لم تحفل بهم وحفلت بها ؟ لانك تحبها ليس الا .

انك في هذا الموقف تحسد ذلك الرجل على نعمة زواجه منها . ومع ذلك فمن الناس من لا يستحقون السعادة وهم مغمورون بها ومن يستحقونها وهم بعيدون كل البعد عنها ولله في ذلك حكمة لانى اعتقد دائما أن ما يقع في هذا الكون يقع بنظام دقيق غريب يجعلني أومن بأن هناك قوة عامة تسيره حتى في أدق الامور

انما الغيرة يا أخي هي التى ساقتك الى الرثاء لها والبكاء عليها ولقد بلغت الغيرة يوما من خليل لزوجه أنه لما دخل عليها ووجدها مع زوجها ... قتله لانه كان متلبساً بالزوجة !

اولى لك أذن ان توصد قلبك من هذه الناحية ودع الناس لشؤونهم

يعرفونها على الوجه الذي يرونه صالحاً على انك انما تعذب نفسك بامرأة اصبحت يتعلق بها حق لغيرك . وسواء أكان هذا الحق عادلا أم غير عادل فليس هذا من شأنك ان تبحثه لأنك لم تكن قاضيا في الناس

وهكذا أنت تغرس حبك في ارض لاتنبت فأولى لك ان تحول بذوره الى أرض أخرى اقدر على الانبات

واعل حجتك الباقية أنها هي أيضاً تحبك . ولكنكما بمثل هذا تتساويان في الخطأ لأنك تمد عينك الى محصنة ولانها تخون زوجها . على انها حتى لو احبتك فما كان بلازم أن تشجعها وانت تعلم انها غير فارغة

ثم من يدري فان الاقدار التي وضعتها في طريق هذه العاصفة فلوتها على زوجها قد تعود فتطرد هذه العاصفة من طريقها وإذن فلمَ تنفخ فيها أنت من أنفاس حواسك فتزيدها هبوبا .

ان في البلد ياأخي من النساء والفتيات الحسان ما لا يحصى عديده فاتخذ لك منهن قسيمة بدلا من هذه التي لا تملكها كفك

ولا اختم سطوري قبل ان اقف بك عند موضع من كتابك كنت فيه أكثر تفككا واضطرابا فلقد قلت أنها لا تحب زوجها وانما تحبك انت . اذا كان كذلك فلمَ اذن تبكي . ولماذا لاتدع لزوجها جسمها مادام قلبها لك من دونه ؛ ولكنك تريد أن تكون كلها لك وما هي الا أثرة ظالمة اجتنبها وتباعد عنها واعمل بما اشرت به عليك تسلم وسترى بعد ذلك انك تخرج من هذا الاتون المتقد بغير ان تصيبك ناره ...

آراء

لبعض أفاضل الكتاب [١]

ان شأن السيدة الشرقية أصبح الآن حديث المجالس والصحف والمجلات حتى ان مجلة الهلال اقترحت على قرائها ان يدلوا برأيهم في سؤالين وضعتهما فيها وهما :

(١) ماذا يحسن ان تستبقي المرأة الشرقية من اخلاقها التقليدية

(٢) ماذا يحسن ان تقتبسه من اختها الغربية

ولقد تتبعنا تلك الآراء بشغف شديد لما لهذا البحث من الاهمية الكبرى؟ في الوقت الحاضر ولذلك نذكرها هنا موجزين

رأي الاستاذ عبد القادر المازني

خلاصة الجواب على السؤال الاول أن تقتنع المرأة بأن بيتها هو ميدان عملها وان العناية بما فيه وبمن فيه من اقدس وظائفها

وخلاصة الجواب على السؤال الثاني ان تقتبس من اختها الغربية العلم النافع الذي يؤدي الى صحة اهل بيتها وجلب السرور والسعادة لهم .

وقد قال ان تفصيل هذا الاجمال تكفل به كاتب عصري سويسري اراد ان يحلل حالة الزوجية التي تسربت الى الجماعات الاوروبية على أثر الحرب العامة ولذلك فهو يوصي المرأة الغربية باتباع ماهو مفروض على اختها الشرقية من حيث العناية ببيتها وقصر الاهتمام عليه . وكأنه يوصي الشرقية أيضاً بأن تحصل كأختها الغربية على العلوم الحديثة التي اثبت الاختبار

---

١ — راجع هلال يناير وفبراير سنة ١٩٢٥

حسن تأثيرها في تحقيق سعادة العائلة بدلا من التعاليم المتيقة والتقاليد الرثة الضارة التي ظهر سوء أثرها في سعادة البشر

رد العلامة مستهل

...ونحن نبين هنا مايجب على الشرقية الاحتفاظ به من رضي الاخلاق

١ ـ (العفة).

لأن بلادنا حارة تبلغ فيه الفتاة سن الحلم قبل اختها الغربية ومناخ بلادها بارد. ولهذا يجب ان تعود من الصغر على العفة ومقت الدنس وان يتعهدها غارسوها بالتقوى والعبادة والاعتقاد بالخلود وبما هنالك من ثواب وعقاب

٢ ـ (الاحتفاظ بمنزلتها)

لقد احست الشرقية حاجتها الى بعض التحجب والى القيام بما يليق بها من الاعمال

وغرضنا من التحجب أن لا يكون اختلاطها بالرجل بغير قيد حتى لا يؤثر الأثر السيء في ادبها وكرامتها

ولسنا نريد به أيضاً التحجب المطلق فنحبسها بين اربعة جدران حتى لا تعرف من العالم الا زوجها وأفراد بيتها ولا من سبب وجودها الا ان تكون مجرد آلة للهو او لاخراج أولاد للمجتمع فان ذلك يجر عليها كثيراً من الامراض

اما بالنسبة لعملها فهو كل عمل يؤدي الى تقويم صحتها ويقوي عنصرها الانثوي ويشغلها عن كثرة الخروج

٣ ـ (عدم التبرج)

[illegible] كانت تعرف [illegible] الزي الحالي

الموجب للاسراف وضياع الزمن في البيت مما جره اختلاط بناتنا بالفتيات الغربيات وهو بعيد عن محاسن التمدن

ويحسن ان تقتبس عن اختها الغربية لغة غير لغتها تمكنها من الالمام بالعلوم الحديثة والصنائع النافعة

والخلاصة ان تكون مستنيرة عفيفة محتفظة بمنزلتها غير متبرجة

رأي الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق :

قد يكون الحجاب بآثاره هو الشيء الباقي الذي يميز السيدة الشرقية عن اختها الغربية وغرضي منه عيشة العزلة القديمة بعيدة عن كل ما يعرضها لأعين الرجال

ولكنه ولد في نفسها الشعور بالعجز مما ورثها ضعف النفس والجسم وجعلها بحاجة الى الحماية

والاثر الثاني هو نظرها الى الحياة المنزلية نظراً سامياً يورثها شغفاً بهذه الحياة وتكاليفها

اما بالنسبة للجانب الآخر فكم نود لو انها يهذبها العلم والتربية الصحيحة فالمرأة التي تجمع بين التقاليد الشرقية من حيث تقديس الحياة المنزلية وبين ما عند الغربية من حسن الذوق والفهم والحرية هي التي نتمناها

رأي الدكتور فيليب حتى

من رأي الدكتور أن يرجع كلا من السؤالين الى مباديء عامة يمكن تطبيقها على ما يناسبها من شؤون المرأة في المجتمع وهكذا وضع لنا المباديء الثلاثة الآتية :

(المبدأ الاول)

ان المرأة ليست دون الرجل في العقل والروح فمن النساء من برهن على ذلك امثال زينب الملكة التدمرية وكيلوبطره الداهية المصرية وجان دارك البطلة الفرنسية وكاترين السياسية الروسية وقرة العين الشاعرة الفارسية ومدام كوري العالمة البولونية

(المبدأ الثاني)

هو ان للمرأة شرقية او غربية طابعاً خاصاً كاللطف والعطف والحنان ودقة التصوير ورقة الشعور والصبر على مباشرة الاعمال الدقيقة مما يؤهلها الى مشاركة الرجل في عمله ولكن بغير ان تنوب وتنصرف عن الامومة التي هي تاج اعمالها

(المبدأ الثالث)

ان لها كل الحق في الاستمتاع بالوسائل الحافظة لحياتها والمؤثرة في نموها وتقدمها

لان هذه المباديء الثلاث : المساواة العقليه والميزة الشخصية وحق النمو هي الميزان الذي يجب ان توزن به الواجبات المتعلقة بشئون حياة المرأة في المنزل وفي المجتمع

ولقد اقتصرنا على ما جاء في هذا الصدد بمجلة الهلال الغراء لضيق المقام لان هذا الموضوع الهام طرقه ويطرقه كل يوم كثير من الكتاب والكاتبات نخص منهن الكاتبة القديرة السيدة روزا حداد حرم الكاتب الاجتماعي المعروف نقولا الحداد في مجلة السيدات والرجال

خاتمة

سبب تشريع تعدد الزوجات . يقظة الحكومة وواجبها

لقد فصلنا في هذه الاوراق كثيراً مما هو واقع من الامور الهادمة للأخلاق بعد ان رجعنا بالعائلة المصرية الى اول عهدها الذي كان يجري جريان الماء الصافي وقابلنا بينها فيه وفي العهد الحاضر

واذا كنا قد حاولنا تحليل هذه الامور على مقدار ما وصل اليه جهدنا من البحث لنصل الى الاسباب التي كان من ورائها تغلغل الفساد فى نفوس الكثيرين والكثيرات منا فأننا مع ذلك لا زلنا نحسن اننا لم نحط بكل شيء . ولكن حسبنا ان نشعر بلذة القيام بالواجب من حيث القات اهل الرأي واولي الامر الى هذا الخطر الداهم وهو في اول طريقه

واذا كان اول من تعي بذلك الاسرة المصرية نفسها ـ لان اصلاح الانسان من شأنه ان لم يدفعه اليه الواجب العام دفعه اليه واجب مصلحته قبل كل شيء — ولكني مع ذلك اخشى أن يكون سلطان التطور الجديد قد قوي الى حد العجز عنده عن رد شره

على ان النفس الامارة بالسوء لن ينفع فيها الزجر بمقدار ما تؤثر فيها صرامة الجزاء . ولهذا ارى ان على الحكومة فى هذا المقام واجباً يناديها بالعمل السريع لتدارك هذا الحال .

ونشجعنا فى هذا الرجاء انها بدأت بالفعل تهتم لأمر المرأة بالاصلاح

الذي شرعت تدخله فى الاحوال الشخصية حتى اصبح للقضاة حق التفريق بين الزوجة وزوجها المحكوم عليه بسجن طويل او لسبب اخر وحق حبس الزوج فى النفقة والى غير ذلك

ان من التقاليد والعادات مالم يرتكز في الاصل الا على سبب خاص. فثل هذا مما يزول مع الزمن اذا زال حكم ذلك السبب . ومن ذلك تعدد الزوجات فقد كاد يتلاشى سلطانه عند الطبقات الراقية التي اخذت نفوسها تمقته وتنفر منه وكذلك عند باقي الطبقات تقريباً بسبب ما اصابها من سوء الحال وضيق العيش .

وتعدد الزوجات في ذاته مناف لطبيعة مساوة المرأة بالرجل . وضار بالأسرة لأنه سبب مستمر من اسباب النفرة بين الزوجات وبين اولادهن يؤثر في مجموع الامة التي يصبح نصفها يحمل الحقد والضغينة للنصف الآخر.

ثم ان كثرة الاولاد موجبة لكثرة التكاليف التي ينوء تحت حملها الزوج من حيث امور المعيشة وشؤون التربية فيشب سواد الامة فقيراً جاهلا وهذا فضلا عما يلحق بأخلاق الزوجات من الفساد

واذا كان تعدد الزوجات مباحاً في صدر الاسلام فلانه على ما ارى كان عادة جاهلية فكان من حسن الرأي عدم مصادمتها دفعة واحدة ولان حالة المسلمين السياسية كانت تقضى به ايضاً وما كانوا وقتئذ الا نفراً قليلا :

« تناكحوا تناسلوا فاني مباه بكم الامم يوم القيامة »[1]

على ان الشريعة لم تكن بغافلة عن تلك المضار التي اسلفناها فلم تشرع تعدد الزوجات من طريق الالزام ولا اوجبت حداً لمن يخالفه فتركت كل زوج حراً في اتباعه اذا آنس من نفسه المقدرة على العدل مع استحالته : « ... ولن تعدلوا ... »

ولكنها وجدت أن الاسلام في اول عصره بحاجة الى النسل فتركت الباب مفتوحاً لمن قدر عليه بعد التنبيه الى ذلك القيد .

اما الحجاب فقد كان من اكبر حسنات الاسلام وقد رأى ان كل الخطر في مطلق الاختلاط بين النوعين حتى ان كتاب الافرنج انفسهم نبهوا الى ذلك (راجع قطعتي النار وارحمني السالفتين) بل ان بعضهم حسد المرأة الشرقية على الحجاب وتمنى لو ان الغربية تقلدها فيه ومنهم ذلك الكاتب السويسرى الذي استشهد به الاستاذ عبد القادر المازني عند ما أدلى برأيه في موضوع المرأة الشرقية بالهلال

ومع ذلك فمن يرجع الى المصادر الخاصة بالحجاب[2] لا يرى ان الشريعة كانت جامدة بالنسبة له وقد ساوت بين المرأة والرجل كل المساواة

---

(١) كان عمر رضي الله عنه يقول اني لأتزوج النساء ومالي بهن حاجة وآتيهن ومالي بهن شهوة رجاء ان يخرج الله من ظهري من يكاثر به محمد صلى الله عليه وسلم الامم يوم القيامة

(٢) من اراد المزيد في هذه النقطة فليرجع الى تحرير المرأة فقد وفاها فيه المرحوم قاسم أمين

واباحت لها التنقل والحركة للاتجار ولمباشرة امورها بنفسها مع الوقار والتحشم

ولكن الحجاب فى الوقت الحاضر اصبح مع الاسف مفهوماً على غير ما قصد منه فأن السيدة المصرية صارت لا تخرج لسبب نافع من تلك الاسباب بل اصبح خروجها عالناً لقل ثروتها او ثروة زوجها الى حوانيت التجار في مالا يعود بأي نفع على البت وهي في كل هـذه الحركات ترى انها ماخلقت الا لتكون فتنة متنقلة في الطرقات والميادين والاسواق

والناس من لحم يحن ومن دم   وعواطف عند الشباب خفاف

وهنا يجب ان نسمع صوت الحكومة ازاء هذه الحالة التي اصبحت اذا لم يخطىء ظني من اكثر اسباب الفساد المنتشر الآن

كلمة أخيرة
واجب التشريع

من منذ ٥٦ سنة اهتمت الحكومة في تشريعها لأمر الآداب العامة من طريقين : أحدهما خاص لأنه قاصر على البغايا والثاني عام لأنه يتناول عموم الأفراد تقريباً . فوضعت لائحة العاهرات في سنة ١٨٦٩ كما وضعت قيودا فى قانون العقوبات لصيانة الآداب العامة منها ما هو مرصود في باب المخالفات ومنها ما هو معتبر من غيرها كهتك العرض والزنا

واذا رجعنا الى هذه النصوص اغتبطنا كل الاغتباط لأنها تدل على ان المشرّع كان مطمئناً على كمال السيدات وكرامتهن ففكر في الضرب على كل يد مفسدة تمتد الى سياج هذه الكرامة سواء من جهة البغايا او من جهة فريق من الرجال والفتيان المفسودي الأخلاق حتى أنه في ٤ فبراير سنة ١٩٠٤ فكر في وضع عقوبة شديدة لهتك العرض وأفساد الأخلاق ووضع فوق ذلك نصاً جديدا لمعاقبة من يدخل منزلا ويرتكب في حضرة امرأة فعلا اذا وقع علانية عدّ فعلا فاضحاً مخلا بالحياء

هكذا كان المشرع ينظر عند تشريعه عن السيدة المصرية الى جهة واحدة هي المؤثرات في كمالها وكرامتها . ولكن مما يؤسف له أن الحال تغيرت واصبح أمر المحافظة على الآداب واجبا من جميع النواحي

وتنص لائحة العاهرات على منع اتصال بيوت العاهرات بغيرها من بيوت الناس وعلى معاقبة من تنتهك منهن حرمة الآداب علناً كما حظرت

عليهن الوقوف على ابواب بيوتهن ونوافذها . فاذا كان يطلب ممن دفعهن شقاء الحظ الى الاتجار بعفافهن أن يحافظن على حرمة الآداب فكم كان هذا أولى بالسيدات الكريمات

أن الآداب اصبحت تنتهك حرماتها لسوء الحظ في غير تلك البيوت وفي الطرق العامة بسبب ما قام في أذهان الكثير من السيدات من أن التفاني في الزينة والتبرج وما يتبع ذلك من حركات الرشاقة واساليب الخلاعة امر قضت به المدنية الحديثة على ما يفهمن . وهكذا اصبح الفتيان بحاجة الى الحيلولة بينهم وبين هذه المظاهر والحركات والاساليب لانها مثيرة للحواس مغرية بالفساد

لذلك اصبحت الحاجة ماسة الى تحرك الحكومة حركة اخرى لتسد هذا الفراغ الجديد بقيود جديدة تحول دون تأثير ما ذكر في مشاعر الناس لأن الفتنة الآن اصبحت في السواعد المكشوفة والوجوه المصبوغة والصدور العارية والسيقان الظاهرة وربما كان من واجبها أيضاً وضع قانون للعزوبة فان ترك الفتيان أحراراً من حيث اقبالهم على الزواج او عدم اقبالهم عليه من اكبر الاخطار اذ لا يعقل أن يفرض القانون عقوبة لاتفه المخالفات ولو مع حسن النية كالاغتسال في المدن والسكر البيّن ولا يهتم لمثل تلك الامور التي لا يختلف منا اثنان في خطرها

ولا شك أن المرأة اذا وقفت عند حد الحشمة في زينتها وحركاتها وأمسك الشبان عن معاكستها بالانصراف الى الزواج وخشية العقوبة أمن كلاهما مزالق الفساد

اننا ما كنا نسمع فيما مضى بحوادث الزنا واللقطاء الا نادرا جداً

فأصبحنا الآن في زمن صارت فيه هذه الحوادث عادية مألوفة لكثرتها وتكرارها حتى ازدحمت المحاكم بقضايا هذا النوع وتعددت الملاجيء لانتشال اللقطاء من الطرق . ولا يمكن ان يكون هناك مقياس على مبلغ انتشار الفساد أصح من هذا المقياس

وربما كان من متممات هذا البحث ان تعيد الحكومة النظر فيما وضعته من النصوص خاصا بالزنا على وجه يكفل القضاء عليه . ان قانون العقوبات يفرض في اسقاط المرأة الحامل مثلا عقوبة قد تصيبها اذا اشتركت فيه وهي عقوبة تتساوى فيها الزوجة غير الزانية والمرأة الزانية مع ان عقوبة هذه كان يجب ان تكون أشد لأنها في الواقع ترتكب جرمين جرم الزنا وجرم اسقاط الحمل . ولكن القانون لا يعاقب على الزنا الا المحصنة

وهكذا يكفي ان يبلغ الزناة سن الرشد لكي يفلتوا من القصاص لان احترام الحرية الشخصية أمر واجب . . . ولكنه احترام يشجع على الفساد ويصرف الناس عن الزواج لان هذه الاباحة جعلت الكثيرين يستمرئون طعم هذه العلاقة فانتشرت حيازة النساء على سبلها المختلفة

على اننا لو رجعنا الى عقوبة الزنا وجدناها متفاوتة بالنسبة للزوجين فالمرأة تعاقب بالحبس بما لا يقل عن سنتين والرجل يعاقب بما لا يقل عن ستة اشهر او بالغرامة . ولا افهم معنى لهذا التفريق خصوصاً وان الزوج هو المهيمن على امرأته القائم عليها وهو اكبر مظهر من مظاهر الزوجية بل إنه المرآة التي ترى الزوجة نفسها فيها والمثل الذي تقع عيناها عليه فكان أولى بعقوبة تتناسب مع كل هذه الاسباب ولاسيما أن القيود التي اشترطت

بالنسبة له (وهي تكرر الزنا ووقوعه في نفس منزل الزوجية وبامرأة يعدها الزوج لذلك) تعدّ ظروفا مشددة لا مخففة

على ان هذه القيود نفسها تجعلنا في حل من التساؤل :

ماذا يكون الحكم اذا هتك الزوج عرض صبي بالغ في منزل الزوجية؟

وماذا يكون الحكم لو ان الزنا بمنزل الزوجية لم يقع الا مرة واحدة؟

وماذا يكون الحكم أيضاً لو ان الزوج اتخذ الزنا عادة في مكان آخر غير منزل الزوجية ؟

كل هذه فروض جائزة بل أنها كثيراً ما تتحقق وهي من الخطر بمكان على عفاف الزوجة . والامتياز الوحيد الذي خرجت به أن زوجها لو فعل ذلك وبلغ عنها أهمل تبليغه أو حكم بعدم جواز قبوله . وفي هذه الحالة هل يقف الامر عند هذا الحد فيستمر الفجور لأن الزناة من بعض المحصنين في حمى من نصوص القانون ؟

أن هذه المواد نقلت عن التشريع الغربي نقلا بغير ان يفكر الشارع المصري فيما بين الشرق والغرب من التفاوت في الأخلاق والعادات . وهكذا جعل زمام الدعوى - مجاراة لهذا التشريع — في يد الزوج لحجة واحدة هي احترام بيت الزوجية والضنّ به من أن يتهدم وهو اعتبار لا يتحقق في الغالب لأن الزوج حين يفاجيء زوجته متلبسة بالزنا يتشرد صوابه ويعجز عن ضبط نفسه فيندفع الى التبليغ وقد لا تقوم فكرة العفو في نفسه الا بعد نظر الدعوى او الحكم فيها او الشروع في تنفيذ الحكم او تنفيذه فعلا حيث يصبح أمره وأمرها معلوما لجميع الناس .

واما تهدم بناء الاسرة فلا يكون مطلقا بصدور الحكم على الثاني وانما

يكون بالطلاق الذي يفرق بين الزوجين ويتشتت معه الاولاد . بل أن في الحكم ازاجراً حتى لايتكرر الزنا وحتى لاينتشر . ومع ذلك فأليست كل أسرة جزءاً من بناء الأمة العام فلماذا لايجتث هذا الجزء السقيم حتى تسلم باقي الاجزاء

وانما الامم الاخلاق ما بقيت   فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ولقد كان الزنا في العصور الخالية معاقبا عليه بالقتل والاحراق والرجم والجلد

« والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر

الفهرس

الخطأ والصواب

الصحيفة	الخطأ	الصواب	السطر
٨	يتقّزز	يتفرز	١٣
١٤	رتد حصنها	تسعى لحصتها	١٦
٢٠	لزوجية	الزوجة	١٢
٢٤	يزهو	يزهى	١٣
٥٩	سكوته	سكونه	١٩
٦٩	أوما	وأما	١٥
٧٢	طفلها	طفلهما	١٣
٧٢	وجنته	وجنة	١٥
١١٢	بنضيها	بغضبها	٥
١٤٠	تنوب	تنوب عنه	٩

DIRECTEUR
REDACTEUR
EN CHEF
Selim Cobein
LECAIRE



مجلة علمية تاريخية ادبية روائية مصورة

صاحب المجلة
ورئيس تحريرها
سليم قبعين
مصر

سارت مجله الاخاء طبقاً لسنة الترقى فتدرجت تدرجاً مطرداً في سبيل التقدم حتى أضحت في أول سنتها الخامسة من المجلات التي حازت رضاء قرائها واستحسانهم فجاءتها رسائل الاستحسان والتشجيع من أهل الفضل والنبل في سائر الأقطار العربية والمهجر واقبل على الاشتراك بها كثيرون ممن يقدرون الأدب والعلم حق قدرهما وكتب كثيرون يقولون كما كتبت جرائد كثيرة « ان مجلة الاخاء هي المجلة الوحيدة التي يطالعها القاريء من أولها الى آخرها بدون ملل او سآمة فيتنقل من المقالات العلمية الى الأدبية الى أهم الاختراعات والاكتشافات الى الحركة الأدبية في سائر الاقطار العربية الى رواية وفكاهات ومسابقات وغير ذلك من الشؤون والفنون . والاخاء هي المجله الوحيدة في الشرق كله التي تستقي موادها من اللغة الروسية فضلاً عما تنقله عن أشهر المجلات الأميركية والانكليزية والفرنسية والايطالية وأخذت في هذا العام تنشر سلسله مقالات عما كتبه دوزي المستشرق الشهير تحت عنوان « نظرات في تاريخ الاسلام » واندمج في سلك تحريرها فريق من فطاحل الكتاب الذين لا يجارون في مضمار اليراعة والبراعة ومع ذلك فهي أرخص المجلات العربية لأن قيمه اشتراكها ٦٠ قرشاً في مصر و ٨٠ في الخارج جربوا واطلبوا عدداً واحداً منها لتتحققوا ذلك وليس الخبر كالعيان